حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
دورية تصدر كل شهرين
www.hiragate.com
السنة الحادية عشرة
رجب ١٤٣٧هـ / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٦م

بين اليوم والأمس

غُلِّقتْ بالأمس الأبواب
وغامت في عيوننا الألوان
واحترقت قلوبنا حزنًا
وعلا دخانها الأَسود
يصبغ الآفاق، ويسود الأرجاء
أما اليوم، فها هي الأبواب تفتح
والآمال تتألق.

* * *

٢ الامتحان
فتح الله كولن
١٢ المسلم الشاهد
أ.د. الشاهد البوشيخي
٢٢ الإسلام والسِّلم العالمي
أ.د. الشريف حاتم العوني

الارتقاء

في مقال حزين ينمّ عن أسى عميق وأسف عظيم، يكتب فتح الله كولن في صدارة هذا العدد من حراء، عن الامتحانات الرهيبة والاختبارات الكشّافة عن حقيقة الإنسان وجوهره الإلهي، والتي يعاني منها الإنسان منذ مجيئه إلى هذه الدنيا وإلى أن يفارقها.. وأعظمها وأكثرها فائدة هي تلك الامتحانات التي توهمنا بإحساس مفاجئ بسيل من المعاني الأكثر والأكبر من ذات الإنسان، والتي تبدو إلى جانبها المشاغل الشخصية عبارة عن صغائر وتوافه؛ لأنها بدلاً من أن تقصم ظهورنا وتحني أصلابنا، تمنحنا المزيد من القوة والصلابة، وتحفزنا لمواجهة التحديات والارتفاع بكل طاقاتنا الخفية إلى الآفاق ونهايات الطاقات، ثم تزيد من حِدّة أنظارنا الذهنية ورهافة مشاعرنا وأحاسيسنا لخوض هذه المعاناة واحتمال آلامها، فتتحرك منّا السواكن، ويشتعل فتيل الطاقات الخامدة فتبرق وترعد وتفزع.

فهذه الامتحانات أو قلْ الاختبارات، إنما هي عملية ارتقاء نحو الداخل للوصول إلى المستويات الأسمى من وجودنا، والأخفى من ذواتنا، فنواجه الدنيا وعذابها وقهرها، والإنسان وخيانته وكرهه وحقده وحسده، نواجه كل هذا بعقل ثابت، وروح قاهر، وشعور بالإشفاق على أولئك الغادرين والخائنين والظالمين.

وعبد الإله بن مصباح يكتب في مقاله "أثر الماء على الحياة" عن الماء مفتاح الوجود، وعن العلم الحديث الذي أظهر أثر الماء عند كل مرحلة من مراحل الخلق والتكوين.

وبركات محمد مراد يكتب مقاله الموسوم "الإنسان بين المحيط الحيوي والتوازن البيئي" فيقول: "إن تلوث البيئة وإنْ كان يبدو لأول وهلة مشكلة محلية الحدوث، إلا أنه يعد مشكلة عالمية بالدرجة الأولى".

أما الشاهد البوشيخي فيكتب في مقال "المسلم الشاهد" فيقول: "إن المسلم الشاهد لا يدعو إلى شيء لا يعرفه، بل يدعو إلى الله بعلم، والعلم في هذه الأمة يصدق أساسًا على ما كان يقينًا".

وفي مقال "مجدِّدون" يقول جمال بن فضل الحوشبي: "المجدد بشر من البشر لا يخرج من الأرض ولا يهبط إليه الوحي من السماء، قد يكون ملهمًا نعم، لكنه ليس معصومًا من الزلل".

"الإسلام والسِّلم العالمي" مقال لـ"الشريف حاتم العوني"، يتحدث فيه عن قواعد الإسلام ومنطلقاته فيقول: "من قواعد الإسلام ومنطلقاته؛ تقرير الإسلام وجود الاختلاف القدري بين البشر في الأديان، وأنه خلاف لن يزول إلى قيام الساعة، كما أن الإسلام يساوي بين البشر مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم".

و"مثلث صناعة النصر"، فهو مقال لـ"فؤاد البنا" يقول فيه: "من أسباب النصر هو إعلاء الحس العملي عند جميع صناع النصر، وإدراك أن الميدان يحتاج أفعالاً لا أقوالاً، وأنشطة لا شعارات. وهذا يحتاج قدرًا كبيرًا من الإعداد النفسي والجسمي، بجانب الانضباط وحس المسؤولية وطاعة القيادة التراتبية".

أما مقال "لا ميلاد بلا ألم" فيكاد يكون قطعة أدبية راقية يتحدث فيها الكاتب علي المرضي عن التقائه فكريًا مع "فريد الأنصاري" رحمه الله في كتابه "عودة الفرسان"، هذا الكتاب الذي يعتبره كاتب المقال درة ما كتبه "فريد الأنصاري" رحمه الله.

وأحمد عبادي، فنخوض معه ومع مقاله العميق "علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر"، وكما عودنا فقد كان مقالاً فيه المعاني والأفكار ما يعتبر زادًا لكل مهتم بالإسلام وبتطابقاته الكونية والعلمية.

ومن بعدُ ومن قبلُ، فالفضل لله تعالى وحده، له يكتب الكاتبون وله يقرأ القارئون.

hiragate.com

المحتويات

الامتحان / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
إكسير الضراعة / حراء (ألوان وظلال)	٤
أثر الماء على الحياة / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٥
الإنسان بين المحيط الحيوي والتوازن البيئي / أ.د. بركات محمد مراد (قضايا فكرية)	٨
المسلم الشاهد / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	١٢
سفينة الإنسانية / حراء (ألوان وظلال)	١٧
المجدِّدون / د. جمال بن فضل الحوشبي (قضايا فكرية)	١٨
الإسلام والسِّلم العالمي / أ.د. الشريف حاتم العوني (قضايا فكرية)	٢٢
مثلث صناعة النصر / أ.د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٢٧
أنيسُ مَن لا أنيس له / حراء (ألوان وظلال)	٢٩
سيادة البحار / ناجي العتريس (تاريخ وحضارة)	٣٠
النحل.. أشهر وسطاء التلقيح / د. رضا عبد الحكيم رضوان (علوم)	٣٣
جابر بن حيان.. مؤسس علم الكيمياء / د. خالد حربي (تاريخ وحضارة)	٣٧
العروق الصوادي / د. حسن الأمراني (شعر)	٤١
لا ميلاد بلا ألم / علي المرضي (أدب)	٤٢
علومنا الإسلامية والسياق الكوني المعاصر (٣) / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	٤٥
أسرار في عيون الحيوان / د. محمد السقا عيد (علوم)	٤٩
الإسلام والتفاعل بين الحضارات / رقية أهجو (قضايا فكرية)	٥٣
في التربية المثال / د. الحسان حالي (تربية)	٥٧
قوافل التاريخ / حراء (ألوان وظلال)	٦٠
مدرسة "حراء" الفكرية / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٦١

الامتحان

سلسلة من الامتحانات هي الحياة.. من بدايتها حتى نهايتها. فمنذ الطفولة تبدأ امتحانات بني الإنسان، تبقى معه وتلازمه حتى اللحظة التي تفارق فيها الروحُ الجسدَ. بيد أن كل حلقة من تلك الامتحانات الصغيرة المتتابعة ما هي -لمن وعى- إلا فرز للأروح وتصفية لها لمعرفة من سيتأهل منها ويفوز.. فيرى الإنسانُ بأم عينه تلك النتيجة، ويُقرّ بها من صميم وجدانه في ظل متابعة سكان الملإ الأعلى عليها كذلك.

ألوان وأصناف هي الامتحانات.. لا تنتهي مدى الحياة وإن اختلفت طولاً وعمقًا.. فمن امتحان بداية الطلب المدرسي، إلى امتحان تجاوز الفصول الدراسية حتى امتحان التخرج، ومن امتحان أب يعاني من ابنه، وامتحان ابن يقاسي من أبيه، إلى ألوان أخرى من امتحانات واختبارات عديدة. لكن أشدّها على النفس إيلامًا، وأقساها على كرامة الإنسان وعزته، هو امتحان الإقصاء والتهميش لما تحمله من رؤى إنسانية نبيلة وغايات سامية، وحرمانك من حقوق المواطنة جراء ذلك.

وفي اللحظة التي تتعرض فيها لفتك الأعداء وتنكيلهم، قد تصعقك امتحانات مريرة من قبل خلاّن لك لا نصيب لهم من الوفاء. وذلك -لعمر الله- الامتحان الأصعب على النفس تحمُّله والصبرُ عليه.

فشراسة العدو وضراوته قد تُفهَم في إطار منطق العداء، وإن لم تكن موافقة لإنسانية الإنسان وفطرته النبيلة. بل إن ازدياد وتيرة العداوة -وفق هذا المنطق- مع ارتفاع نسبة الاختلاف في زوايا الفكر وفهم العالم ومعايير القيم قد يبدو طبيعيًّا كذلك. ولكن أن يتصدى لك من تكافح جنبًا إلى جنب معه في المسار القدَري نفسه، وتُبادله الأفكارَ والمشاعرَ عينها، فيخذلك ويشي بك ويؤذيك بل ويفتك بك بدافع من الغيرة والحسد والتنافس المشؤوم، فذلك مما لا يمكن تفسيره بالعقل ولا بالمنطق أبدًا، ناهيك بأن يتوافق مع السجية الإنسانية أو الأخلاق السوية.

أجل، أن تُفاجَأ بالخيانة والخذلان ممن ترجو منه وفاء لَمؤلم حقًّا ومثير للتأمل. ولكن هل باليد من حيلة وسط عالم يعتبر الخديعة ذكاء، واحتكار الفكر والتزمتَ ولاء، والتعصبَ الأعمى التزامًا؟! في عالم كهذا لن يغيب هذا اللون من الابتلاءات أبدًا. فلا سبيل -والحال هذه- سوى الاعتراف بهذه الحقيقة والصبر عليها. أجل، فلا سبيل سوى أن نردد أفرادًا وأُسرًا ومجتمعات ما عبّر به الشاعر في حق مولاه ﷻ:

إن جاءني جفاء من جلالك،
أو جاءني وفاء من جمالك،
فهما للقلب صفاء،
فلطفك حلو، وقهرك حلو... (يونس أمره)
ثم نُسلِم أنفسنا إلى صبر جميل.

هذه الأمة تعرضت لطعنات الغدر والخيانة مرارًا أمس واليوم على يد أعدائها أحيانًا، وعلى يد خصومها المتنكّرين بزيّ الأصدقاء أحيانًا أخرى. ذاقت أشد أنواع الامتحانات مرارة وأكثرها إيلامًا على مر التاريخ، وتعرضت لأفظع أصناف الخذلان. أتى عليها يوم تداعت فيه دول العالم عليها بجيوشها، وأغارت بخيلها ورَجِلها، وحاصرتها من كل طرف. في ذلك اليوم توهّم بعضهم أن الأمة ستنمحي من صفحات التاريخ دون عودة. لكنها فاجأت خصومَها، وقلبت خططهم مرة أخرى رأسًا على عقب، واستطاعت أن تَعبُر ذلك الامتحان، امتحان "الاندثار أو البقاء". ومن

لا يمكن لقلوب ميتة لم تكتو بأيّ ابتلاء يومًا، ولا لأرواح خامدة لم تذق مرارة الامتحان قط، أن ترقى إلى أي أفق إنساني، ولا أن تمنح مجتمعها أدنى عطاء إنساني.

يدري، فلعلها تواجه في المستقبل امتحانات أشد عنفًا، وتتعرض لهزّات بعد أخرى، وتعترضها جبال من نار، وبحار من دم وصديد.. ولكن ذلك كله سيعينها -حتمًا- على تجديد ذاتها وشحذ طاقتها الروحية. أجل، بفضل تلك الابتلاءات ستميز صديقها من عدوها، وتَصلُب عزيمتُها، وتتعلم كيف تستوي على رجليها، وتنهض قوية بعد سقوطها، وتعرف سبل العودة إلى ذاتها.

بالامتحانات يتصفّى الإنسان ويعود إلى جوهره الفطري، وبها تتخلص الحياة من الرتابة وتزهو بشتى الألوان، فتزداد الروح بكل محنة تتعرض لها نضجًا، وتغدو جاهزة لمواجهة تحديات كبرى. وبقدر ضخامة الامتحان وصعوبة أسئلته يتأهل الفرد في "مدرسة الإنسانية"، ومن ثم يرتقي إلى مستوى آخر، ويحثّ السير قُدُمًا نحو الأعالي.

لا يمكن للفرد أن يتصفى أو يكتشف جوهره الإنساني بلا امتحان، وكذلك المجتمع لا يتماسك بنيانُه، ويتحول إلى فولاذ بدون امتحان. الأرواح التي تتحفز بالامتحانات تشتد كالقوس، وتنطلق كالسهم، وتصيب الهدف في لمح البصر. أجل، إن المخاطر التي تحوم حولهم وحول منازلهم صباح مساء، والجوع والعطش والمعاناة التي تهدد أُسَرهم في بعض الأحيان وتهزها في الصميم، والخسائر التي يتعرضون لها في أموالهم وأنفسهم، ثم الانسحاق تحت مكابس الأحداث الحديدية، كل ذلك يحوّلهم حديدًا صلبًا لا يُقهَر، ويُعِدّهم للمستقبل المضيء.

لا يمكن لقلوب ميتة لم تكتو بأيّ ابتلاء يومًا، ولا لأرواح خامدة لم تذق مرارة الامتحان قط، أن ترقى إلى أي أفق إنساني، ولا أن تمنح مجتمعها أدنى عطاء إنساني.

hiragate.com

بالامتحان تمتاز الأرواح الماسيّة عن النفوس الفحمية. في غياب الامتحان، لا يتميز الذهب عن الحجر، ولا الألماس عن الفحم. فإذا غاب الامتحان في قوم اختلطت فيه النفوس الدنيئة بالسامية. وبالامتحان تمتاز الأرواح الملائكية الصافية عن الأرواح الخبيثة، وتبلغ قممًا قُدّر لها السموّ إليها.

لذا، فكل امتحان لدى "قلبٍ عارفٍ" بهذه الحقائق مستوعبٍ لها، جناح نوراني يحلق به إلى "عوالم ما وراء السماوات"، وكل "معاناة" يعانيها "إكسير" يمنحه طاقة إضافية وحيوية جديدة. في نظر "عارف" كهذا، الرميُ في النيران أقصر طريق لنيل خُلّة الباري ﷻ، والتعليقُ على أعواد المشانق أفضل وسيلة للارتقاء إليه سبحانه.

أجل، كل امتحان جديد في نظر "فارس" ملأ قلبه بأعظم الأماني وأسمى الغايات، ما هو إلا سوط يُلهِب عزيمته، وإكسير يَشحذ إرادتَه، وضياء يملأ شاشة قلبه بالأنوار. إنه مع كل امتحان جديد يتلألأ كالبلور، ويتوتر كالقوس، ويرتفع نحو الجِنان التي أقامها في قلبه خطوة فخطوة.

هيهات لقلوب ميتة لم تدرك معنى "حلاوة القهر واللطف معًا" أن تعي هذه المعاني السامقة. فلا تأبَهْ لهم أو تكترثْ بحالهم. أما من هامت قلوبهم بهذه المعاني، فلا ألذّ لديهم وأحلى عندهم من كل مكابدة يلاقونها في هذا السبيل. فلو احترق هؤلاء الأخيارُ كالمواقد المتأججة فلن تسمع منهم تأوّها أو صراخًا، ولن تجد لهم شكوى، ولن يبثوا آلامهم لأحد. ولن يفتّ في عضدهم أو يثنيهم عن خدمة أمتهم ووطنهم تَخاذُلُ صديق أو فتكُ عدو، بل ستظل مقولتهم الفاصلة التي يرددنها دومًا:

اجمعي أيتها الأقدار ما لديك من أسباب الجفاء،
اهجمي عليّ ولا ترحمي،
فلو نقضتُ عهدًا في سبيل أمتي،
فأعلنوني خائنًا!..
طابت روحُك نامق كمال! ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد:٥٣ (يوليو/تموز ١٩٨٢). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

إكسير الضراعة

يا مسكين، يا ضجيع الحاجة،
يا صريع المسكنة، يا خدين الفقر،
يا مَن لا حول له ولا قوة..
عُدْ إلى نفسك وانتبه..
في حاجتك ارْفعْ أَكُفَّ الضراعة..
بِمَوْلاك توسّل.. ابْكِ دمًا..
كُنْ فانيًا فيه، ذائبًا في دعائك،
متلاشيًا أمام عظَمته،
مضمحلاً متبرئًا من حولك وقوتك..
فإنْ فعلت ذلك في بدايات أمرك،
جاءتك النهايات،
وهي تزجي إليك مطلوبك،
وتعطيك مقصودك..
فتفرح الروح، ويُسَرُّ القلب،
من حيث لم تكن تحتسب.

* * *

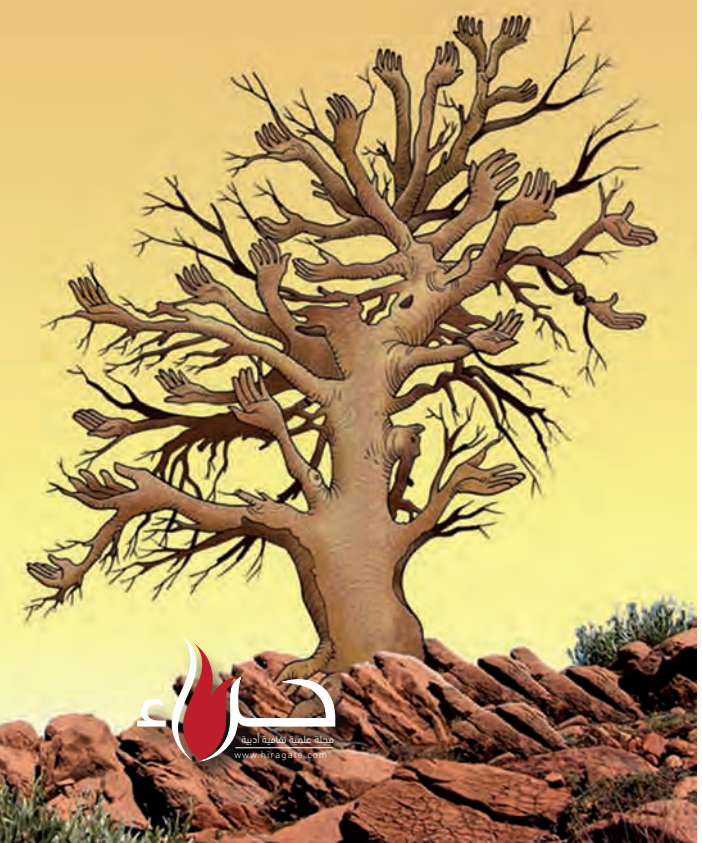

د. عبد الإله بن مصباح*

أثر الماء على الحياة

يُعد الماء أصل كل شيء ومفتاح الوجود الذي انطلق منه الكون وتفرّعت منه الحياة. فقد جاء في تفسير ابن كثير لقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾(هود:٧)، أن محمدًا بن إسحاق قال في تفسير هذه الآية: "فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام". وهذا المنطلق يجب أن يعتبر قاعدة الأساس في كل بحث، كما يتجلى ذلك من خلال حقائق العلم الحديث، التي أظهرت أثر الماء عند كل مرحلة من مراحل التكوين، منذ بدء الكون إلى خلق الإنسان فما بعد.

فإذا تطرقنا إلى الأطوار الجنينية المتعلقة بخلق الكون، فإنه يظهر في تقدير

علماء الفضاء، أن دور الماء كان بارزًا في إصدار الطاقة التي كانت وراء ميلاد الكون، وذلك نتيجة انتقال الماء من حال حبّات متجمدة دون شكل، إلى حبّات متجمدة ذات شكل بلوري تحت تأثير ارتفاع طارئ للحرارة.

كما أننا نجد أن الغلاف الجوي الذي نتج عن تبخر ماء جوف الأرض، سيشكل فيما بعدُ الغطاء الذي فيه ستحفظ الحياة، وبه ستحكم الحواجز بين السماء والأرض، يقول ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾(الأنبياء:٣٢). فالغلاف الجوي يبلغ سمكه ٥٠٠ كلم، وهو يحمي الأرض من خطر الإشعاعات المضرة بالحياة، وينقل ثم يوزع الطاقة الشمسية التي تحولها الأرض إلى طاقة حرارية وكيماوية، كما يضمن لها توازنها البيئي فيحفظ محتويات الأرض من مياه وغازات ومواد متبخرة وطاقات، حيث كلما صعدت إلى الأجواء العليا إلا واصطدمت بالجدار الجوي ورجعت إلى مستودعها في الأرض. فيكون الغلاف الجوي بمثابة الوقاء الذي يحفظ محتويات الأرض، ويَحول دون نفوذها إلى الفضاء الخارجي، يقول ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾(الطارق:١١)، ويقول جل علاه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(ق:٦). وبذلك شاءت قدرة الله سبحانه، أن تدور مكونات الماء في حلقة الحياة بين سطح الأرض وغلاف جوها، وانحصرت الحياة في هذا النطاق. فما صعد أحد في الجو إلا وأحس بضيق واختناق، حتى إذا تجاوز مستوى الغلاف، انعدم الأوكسجين واستحالت الحياة، يقول ﷻ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(الأنعام:١٢٥).

واستقر الماء في الأرض بعدما نزل من السماء، كما رأينا ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾(المؤمنون:١٨). فشاء التدبير الإلهي، أن تفرز تشققات قعرِ المحيطات أملاحًا معدنية أعطت ملوحة ماء البحر، ثم بعد ذلك ظهرت أولى الكائنات وحيدة الخلية في مياه البحر، وبنشوئها ظهرت الحياة في الماء، ثم تسلسلت في إيقاع بديع عبر مئات الملايين من السنين، بدءًا بكائنات بدائية بسيطة، وانتهاء بمخلوقات متطورة غاية في التعقيد والتي يعتبر الإنسان منتهى كمالها، يقول ﷻ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾(السجدة:٦). وفي هذا التدرج التسلسلي لأصناف الكائنات، يقول ابن خلدون: "ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ بالمعادن، ثم النبات، ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدريج.. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات، أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية".

ولقد خص الله تعالى ماء البحر بسر عجيب في نشوء واستمرارية الحياة، وذلك ما أكدته الأبحاث الجيولوجية لبقايا أصناف الكائنات الحية الباكرة، حيث أظهرت أن أول أشكال الحياة التي ظهرت على سطح الأرض والمرسخة آثارها في صخور القشرة الأرضية، تشير إلى أن الحياة نشأت في ماء البحر وظلت مقصورة عليه آلاف الملايين من السنين، قبل أن تنتقل إلى اليابسة في شكل نباتات برية في عصر الديفونيان (أي قبل ٤٠٠ مليون سنة من زماننا)، ثم في شكل حيوانات بدائية في نهاية ذلك العصر (أي قبل حوالي ٣٥٠ مليون سنة من زماننا).

وهذه الميزة التي خص الله تعالى بها ماء البحر في نشوء الحياة، تعود -كما يظهر من مواصفات البحر- إلى انفراده بإنتاج عنصر الفوسفور الأساسي في تكوين الحامض الأميني الذي جعله الله تعالى مفتاحًا للحياة. وهذا السر راجع إلى كون نواة الخلية التي هي محور حياتها والتي تحمل ميكانيزمات الوراثة واستمرارية النوع، تتكوّن أساسًا من الحامض الأميني (DNA) الذي جعله الله تعالى نشئًا فريدًا ومفتاحًا وحيدًا للحياة، فحباه الخالق ﷻ بخاصية الاستنساخ (Duplication) وهي ميزة لا توجد في أي جزيء آخر. وعليه، وبما أن العلماء

hiragate.com

لاحظوا أن الفوسفور يعتبر العنصر الأساس في تنظيم عملية تسوية الأوكسجين بين البحار والأجواء القارية عبر البناء الضوئي الذي تنفرد به النباتات الخضراء، وكون أن مصدر الفوسفور الأصلي يعود كله إلى أعماق البحر، فهذا يعني أن الفوسفور يشكل معدن الحياة والماء الذي يحمله، هو نبعها والبحر مهد نشوئها. وهذا مشهد آخر من منظومة أصل الحياة، ينضاف إلى إدراكنا من خلال تجليات أثر الماء الذي جعله الله تعالى مصدر خلق كل ما يدبّ على الأرض، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾(النور:٤٥).

ومن أهم تجليات أثر الماء على إحياء الأرض، ما يُستشف من عمل المياه في ميادين تعرية وتحليل ونقل الرواسب وموادها الأساسية في تخصيب التربة لنمو النبات. فمن جملة التطورات التي شهدها سطح الأرض، التواء القشرة الأرضية وبروز المرتفعات بما تتحمله من مواد معدنية في طياتها إلى السطح، حتى إذا أتت عليها عوامل التعرية تفتتت أجزاؤها وتحللت مركباتها، ثم نُقلت بواسطة المياه إلى المنخفضات لتخصيبها، فيكثر فيها النبات ويزدهر الكلأ؛ فتكون الجبال مصدر الخير، والمنخفضات محطات لاستقطاب هذه الخيرات، والماء أداة التعرية والنقل والتوزيع، وصدق الله حيث قال: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات:٣٢-٣٣). فإذا سأل السائل عن هذا المتاع الذي أودعه الله تعالى في الجبال، قلنا له اهبط إلى منخفضات الأرض فستجدها قد ركّزت ما جرفته الأنهار إليها منه.

وهكذا جعل الخالق سبحانه الماء العنصر الأساس في تمهيد التربة لنمو النبات الذي هو مصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فخص سبحانه النبات بعملية البناء الضوئي (Pho-tosynthèse) التي هي صلة الوصل بين العالم العضوي والعالم غير العضوي، ليكون مصدرًا لأوكسجين الحياة انطلاقًا من الماء كما تبين المعادلة التالية:

الطاقة الضوئية

$$6CO_2 + 12H_2O + C_6H_{12}O_6 + 6O_2 + 6H_2O$$

وهذا يستدعي الوقوف والتفكر في آيات الله، لما يظهره الماء من أسرار عجيبة في حلقة الحياة المغلقة بين

جعل الخالق سبحانه الماء العنصر الأساس في تمهيد التربة لنمو النبات الذي هو مصدر الغذاء ومصدر الطاقة، فخص سبحانه النبات بعملية البناء الضوئي التي هي صلة الوصل بين العالم العضوي والعالم غير العضوي، ليكون مصدرًا لأوكسجين الحياة انطلاقًا من الماء.

بدء الخلق ونهايته. فالماء كان الأصل في شق الأرض الهامدة، وإيجاد التربة التي أنبتت الزرع عبر تسرب الماء إلى الحبة التي انفلقت وأنبتت خضرًا كما نص كتاب الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾(عبس:٢٥-٢٧). ثم في مرحلة أخرى، كان الماء هو المولّد الأساسي لأوكسجين الحياة بفعل البناء الضوئي القائم على استعمال الطاقة الضوئية. وذلك ما تؤكده المعادلة التي وضعناها، حيث قام باحثون في علم الكيمياء بتعليم ذرات الأوكسجين في جزيئات الماء وغاز الكربون، فتبين لهم عبر تتبع مراحل التفاعلات الكيميائية في عملية البناء الضوئي، أن الأوكسجين الذي تفرزه المعادلة الكيميائية، هو آت من انشطار جزيئات الماء وليس من غاز الكربون. فسبحان من جعل أوكسجين الحياة يأتي في جزء كبير منه من انشطار الماء، وقرر ذلك في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء:٣٠).

أما الأوكسجين الآتي من انشطار جزيئات غاز الكربون، فهو يذهب لإنتاج الهيدروكربونات التي هي سكريات النبات، فيدّخر منها النبات ما يمكّنه من تحصيل الطاقة الضرورية للحياة، حتى إذا صار مصدرًا لغذاء حيوان أو إنسان، انتقلت هذه الطاقة إلى المستهلك، فإذا توقفت حياته تحررت الطاقة المخزنة مع غاز الكربون عند تلاشي وتأكسد بقاياه. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

الذين بلا قلب يعيشون، فيا بؤسَ ما يجدون، ويا شقاء ما يُعانون.. ماضيهم قبر رهيب، ومستقبلهم بئر بلا قرار.. صرخات عذابهم تصكّ الأسماع، وآلام أرواحهم تشقّ عَنان السماء.

الموازين

الإنسان
بين المحيط الحيوي والتوازن البيئي

إن الحفاظ على المحيط الحيوي (البيئة) مسؤولية الجميع أفرادًا وشعوبًا.. فالمجال الحيوي يعني الحياة، حيث يلتقي للحفاظ عليها المهتمون في العلوم والتكنولوجيا والإنسانيات والقانون وقنوات المعرفة الأخرى.. فالاهتمام الحيوي يعبّر عن الإيمان بوحدة المعرفة ووحدة المصير. وإذا أردنا التعرف على مدى ترابط عناصر البيئة بعضها ببعض، وتأثير بعضها في البعض الآخر، فنكتفي بالإشارة إلى عدد من العوامل المتداخلة والمتفاعلة في البيئة الصغيرة المحددة. ولو أخذنا عنصرًا من عناصر البيئة كالهواء مثلاً، نجده يتفرع إلى العوامل التالية: تركيبه، والضوء، والرطوبة، وكمية المياه المتوفرة، ودرجة الحرارة، ومقدار التبخر، وحركة الرياح واتجاهها.. وإن كل عامل من عوامل هذه العناصر يتألف من عوامل أصغر، كما تتفاعل كل هذه العوامل مع بعضها بعضًا.

ولو أخذنا عاملاً واحدًا فقط، لوجدنا تأثيره التفاعلي على بقية العوامل؛ فمثلاً وجود نباتات باسقة، يقلل كمية الضوء الذي يصل إلى التربة، ويقلل من الماء الموجود فيها، ولكنه يزيد في كمية بخار الماء في الهواء. وقلّة الضوء الذي يصل إلى التربة، يجعل أنواعًا معينة من النباتات القصيرة المُحِبَّة للظل تنمو تحت النباتات

الباسقة، ويمنع نمو أنواع أخرى من المُحِبَّة للضوء، كما يجعل سطح التربة في مثل تلك الحالة مسكنًا لأنواع معينة من الحيوان دون غيرها.

ولو حدث -لأي سبب كان- أن قُطعت النباتات الباسقة أو ماتت، لتغير الاتزان السائد في تلك البيئة؛ إذ عندها يصل الضوء ساطعًا حيث كان الظل، فتتأثر النباتات الصغيرة التي كانت تنمو، فتموت وينمو غيرها من الأنواع المُحِبَّة للضوء، وتهرب أو تموت الحيوانات التي كانت تسكن هناك محتمية بالظل، وتسكن البيئةَ حيواناتٌ غيرها من التي لا تعبأ بالضوء أو تفضله. وبالطبع لا يتم ذلك فجأة، بل يستغرق بعض الوقت.. وقد تعود النباتات الباسقة للنمو مرة أخرى، لتعيد الظل وتعيد تغير اتزان البيئة إلى شبه ما كانت عليه في البداية.. فاتزان البيئة تحكمه العوامل التي تحدد البيئة وتحد من طغيان عنصر فيها على الباقين[1].

وقد تكون التغيرات هذه دورية، كما تكون غير منتظمة، ولكن الواضح أن الغالبية الفعلي من هذه التغيرات لا تسبب إخلالاً بالاتزان الديناميكي في البيئة، على العكس من ذلك تسبب التغيرات الضخمة التي تحدث نتيجة الكوارث الطبيعية إخلالاً بهذا الاتزان البيئي يؤدي إلى أن تأخذ البيئة طابعًا آخر مختلفًا عن طابعها الأول. وقد يكون التغيير دائمًا ويكون مؤقتًا لا تلبث البيئة أن تصلح آثاره وتعود سيرتها الأولى.

التوازن البيئي على الأرض

هناك ثلاثة قوانين إيكولوجية تسيطر على الطبيعة وضحها علماء البيئة[2]:

الأول: إن جميع أشكال الحياة يعتمد بعضها على البعض الآخر، وتتبادل العلاقات فيما بينها؛ فالفريسة ترتبط بمفترسها للحد من تزايد أعدادها، والحيوان المفترس يعتمد على الفريسة مصدرًا لغذائه.. وفي الوقت الذي تتفاعل فيه أشكال الحياة هذه فيما بينها، فإنها تقيم نوعًا من العلاقات المتبادلة مع المكونات غير الحية في البيئة.

الثاني: إن استقرار الأنظمة البيئية، يعتمد على تنوع وتشابك تلك الأنظمة؛ فالغابة الاستوائية التي تحوي

إن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك أيضًا سيطرة الإنسان على نوازعه الداخليه، وأهوائه وشهواته، منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية، وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله.

حراء

مائة وخمسين نوعًا من أنواع النباتات، هي أكثر استقرارًا من غابة يخرجها الإنسان بنوع واحد أو نوعيين من تلك النباتات.. هذا هو قانون الثوابت.

الثالث: محدودية الموارد.. ذلك أن الطعام والماء والهواء والمعادن والطاقة.. كلها محدودة. ويمكن القول إن هناك حدودًا لمدى نمو المنظومات الحية، وقد فرضت هذه الحدود -بشكل قاطع- عوامل كثيرة منها محدودية حجم الكرة الأرضية وكذلك محدودية ما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية. وهذه القوانين الإيكولوجية الثلاثة المتداخلة بعضها ببعض، تشكل الكل الشامل للبيئة. ومن الأمثلة التي توضح صيغة التوازن، المثال التالي:

في بيئة تنبت العشب يعيش نوع من الأرانب يتغذى على هذا العشب، كما يعيش بعض أنواع الثعالب التي تعيش على افتراس الأرانب. وفي مثل هذه البيئة تنشأ علاقات واضحة بين الكائنات الحية الثلاثة؛ فالعشب يغذي الأرانب، والأرانب تغذي الثعالب. وكلما ازداد العشب ازدياد عدد الأرانب، ومع ازدياد عدد الأرانب يزداد عدد الثعالب.. وبالتالي نجد أن ازدياد عدد الأرانب التي تأكل العشب يؤدي إلى نقص في العشب، وازدياد عدد الثعالب التي تفترس الأرانب يؤدي إلى نقصان عدد الأرانب، وقد يؤدي نقصان عدد الأرانب، إلى تناقص في عدد الثعالب المتزايدة وهكذا.. وبالعكس من ذلك، يؤدي نقص عدد الأرانب إلى تزايد العشب، وهذا يؤدي إلى تكاثر الأرانب، ومثل ذلك يحدث عند الثعالب، وتستمر هذه الدورة متكررة في توازن ديناميكي ما لم تتدخل عوامل خارجية غير العوامل الثلاثة لتخل هذا

hiragate.com

التوازن.. وعندها تختلف علاقات الكائنات الحية في البيئة وأعدادها، إلى أن تتزن مرة أخرى مع الظروف والعوامل الجديدة. وقد يكون التغير أو خلل التوازن عنيفًا بالنسبة لنوع من الكائنات الحية، إلى حد عدم القدرة على التكيف مع هذا التغير الذي ينتهي بانقراض النوع.

هذا المثال الذي أورده الباحث[٣] مبسط جدًّا للإيضاح، ولكن الصورة الحقيقية أكثر تعقيدًا. ذلك أنه لا توجد بيئة مستقلة منفصلة. فهناك بيئات صغيرة ولكنها أجزاء لبيئات أكبر تتأثر بها وتتفاعل معها، كما تتداخل عوامل كل منها في بعضها.. وتتفاعل البيئات الكبرى مع بيئات أكبر منها حتى تصل إلى بيئة كبرى متكاملة هي بيئة الكرة الأرضية بكل ما فيها وما عليها وما حولها.

وقد كان الإنسان -ككائن حي- في بداية عهده بالحياة على هذا الكوكب، يخضع لهذا التوازن وشروطه تمامًا كما تخضع بقية الكائنات الحية. ولكنه بما حباه الله من ميزات خاصة، سرعان ما بدأ يتفادى الآثار الضارة لعوامل البيئة، وبخاصة منها ما يكون على شكل كوارث، أو على الأقل عوامل فعالة لا يمكن للكائنات الحية الأخرى تفاديها؛ فالبرد الشديد الذي يفوق حد الاحتمال، كان في الماضي البعيد عاملاً يؤدي إلى موت الإنسان. ولكن الإنسان بعقله وتفكيره سرعان ما استطاع تفادي هذا الأثر؛ بأن سلب فراء بعض الحيوانات لتدفئة نفسه، ثم اكتشف النار واستخدمها في تخفيف عامل البرد الشديد. وازدادت قدرة الإنسان بتفكيره العلمي حتى استطاع في عصر الحضارة العلمية الحديثة أن يسيطر على جميع عوامل البيئة المعادية، وأن يعيش رغمًا عنها وعن آثارها.

ترويض الطبيعة

لقد أصبحت العلاقة المتبادلة بين العناصر المختلفة في الكيان الحيوي الأرضي حقيقة علمية ثابتة، شأنها شأن التمثيل الضوئي والدورة البيولوجية بين التربة والنبات، أو عمليات دوران الكربون، أو الأزوت في الطبيعة. إنه نظام دقيق يحكم تناسق الكون، كلما أوغلنا فيه تجلت لنا قدرة الخالق الذي جعل لكل شيء سببًا، وكلما ازداد الإنسان معرفة بربه كلما تبيّن له أن النجاحات التي حققها في التقنية والتقدم، ما هي إلا توكيد لضعفه وعجزه[٤].

وهكذا يتبين لنا أن نجاح الإنسان في صراعه مع الطبيعة، وتفوقه في معركة التحدي والاستجابة التي يقول بها فيلسوف الحضارة "توينبي"، إنما على حساب التوازن الدقيق القائم بين عناصر البيئة. لكن السيطرة على جانب معيّن من البيئة، كان يقابَل دائمًا بِردّ فعل عنيف وبمزيد من التحديات من جانب الطبيعة، كما لو كانت الطبيعة تريد إعادة التوازن البيئي القديم، أو إيجاد نوع جديد من التوازن يلائم الظروف الجديدة الناشئة عن تدخل الإنسان والتغييرات التي أحدثها. فمحاولة الإنسان القضاء على الحشرات والآفات -مثلاً- التي تؤلف جزءًا من نسق البيئة الطبيعية المتوازنة، انتهت بالإنسان إلى تلويث الهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه، بل وإلى تلويث نفسه ونقل السموم إلى جسمه هو ذاته[٥].

عالمية التلوث

إن تلوث البيئة وإن كان يبدو لأول وهلة أنه مشكلة محلية الحدوث، إلا أنه يعدّ مشكلة عالمية بالدرجة الأولى. فالملوثات -تحت تأثير عوامل كثيرة- لا تعرف حدودًا جغرافيًّا تتوقف عندها، فهي تتصف بقدرتها الكبيرة على الحركة المرنة، والانتقال من موقع إلى آخر على المدى القريب والبعيد معًا، مما يعطي للمشكلة صفة العالمية. وبالتالي تسهم الرياح والسحب والتيارات المائية في نقل الملوثات من بلد إلى آخر. فالأبخرة والأدخنة والغازات الناتجة من مصانع غرب أوروبا، تنقلها الرياح إلى بلاد نائية وأماكن بعيدة كجزيرة جرنيلاند. كما تنقل أمواج البحر بقع النفط التي تتسرب إلى المسطحات المائية -نتيجة اصطدام الناقلات النفطية- من موقع إلى آخر مهدِّدة بذلك الشواطئ الآمنة، والأحياء البحرية بمختلف أجناسها وأنواعها. وقد وضح الحديث النبوي الشريف أن البشرية جميعًا في مركب واحد، إذا تسبب البعض في خرقه وأحدث به ثقبًا، غرق الناس جميعًا إلا أن يضربوا على يد المفسد حتى ينجي وينجوا جميعًا.

وإذا كانت البيئة موطن الحياة، فإن أول ما يجب على الإنسان تحقيقه -حفاظًا على هذه الحياة- هو حماية هذه البيئة. وحماية البيئة تستلزم أمرين هامين، الأول فهم

hiragate.com

البيئة فهمًا صحيحًا بكل عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة، والثاني العمل الجماعي الجاد لحماية هذه البيئة وضمان استمرارها موطنًا مقبولاً للحياة.

من أسباب الخلل البيئي

أ- النمو الانفجاري في عدد السكان: يبيّن التتابع التاريخي لتزايد السكان، أن هذا التزايد يسير في لولب تقصر حلقاته باستمرار، وسيصل في المستقبل المنظور إلى حد هائل يصعب معه توفير الغذاء ومتطلبات الحياة البشرية الأخرى لهذا العدد الهائل من السكان. والنمو المتعاظم في عدد السكان يمثل المشكلة الرئيسية للبيئة، فهو يُحدِث آثارًا موجعة فيها، كما أن أيّ مشكلة بيئية أخرى يتناسب -بلا شك- مع حجم الزيادة في عدد السكان.

ب- الثورة العلمية والتكنولوجية: إن ما يميز المجتمع المعاصر من المجتمعات التي سبقته تمييزًا جوهريًّا، هو تسارع التغييرات التي أحدثتها وتُحدِثها الثورة العلمية والتكنولوجية في البيئة وضخامتها وشمولية بعض آثارها.. فمع هذه الثورة برزت قضيتان أو مشكلتان هما تلوث البيئة، واستنزاف مواردها. والتلوث مشكلة كبيرة أعطيت الكثير من الاهتمام بالنظر لآثارها السلبية في نوعية الحياة البشرية. فالملوثات تصل إلى جسم الإنسان في الهواء الذي يستنشقه، وفي الماء الذي يشربه، وفي الطعام الذي يأكله، وفي الأصوات التي يسمعها.. هذا ما عدا الآثار البارزة التي تحدثها الملوثات بممتلكات الإنسان وموارد البيئة المختلفة. أما استنزاف موارد البيئة المتجددة وغير المتجددة، فهي قضية تهدد حياة الأجيال القادمة.

الخلل القيمي

لقد أحدث تدخل الإنسان في التوازن الطبيعي لأنظمة البيئة الكثير من المشكلات، لبعضها آثار عالمية، كتغير المناخ مثلاً. وهناك مشكلات أخرى تقتصر على أجزاء معينة من سطح الأرض، مثل انحسار الغابات في بعض المناطق، وانقراض بعض الحيوانات البرية والبحرية، وزحف الصحارى.. وغيرها. ويتبيّن أن الإنسان قد نسي -أو تناسى- أنه عنصر مكمّل لعناصر البيئة، واعتبرها مخزنًا ضخمًا للثروة، فأطلق لقدراته البيولوجية العنان لاستغلال إمكاناتها والسيطرة عليها. وقد أدى هذا الخلل في تصور الإنسان، إلى مجموعة من المشكلات تكاد تذهب بحياته على هذا الكوكب. فالنمو الانفجاري في عدد السكان مشكلة.. والتلوث مشكلة.. واستنزاف موارد البيئة مشكلة.. وإخلال التوازن الطبيعي للبيئة مشكلة.. إنها مشكلات صنعها الإنسان في البيئة، وعليه اليوم أن يواجهها ويتغلب عليها، ولكن قبل ذلك عليه أن يفهمها[٦].

العلاج إذن يبدأ -قبل كل شيء- في نفوس البشر وسلوكهم. إن الإنسان هو نقطة البداية، مثلما هو الهدف، وبغير الانطلاق من النقطة الصحيحة لا جدوى لحديث عن حلول للاختلال البيئي وسواه، وفي كل الأحوال ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:٤٤).

فسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة لا تكفي وحدها لبناء الحضارة، بل لا بد أن ينضم إلى ذلك -أيضًا- سيطرة الإنسان على نوازعه الداخليه، وأهوائه وشهواته، منضبطة بالقيم الدينية والعقلية والأخلاقية والجمالية[٧].. وبذلك تتم عمارة الأرض كما أراد الله، ويكون الإنسان بحقٍّ خليفة لله في أرضه. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الهوامش

(١) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر، للدكتور زهير الكرمي، ص:٢٠٣-٢٠٤، عالم المعرفة، العدد:٥، الكويت ١٩٧٨.

(٢) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر، للدكتور زهير الكرمي، ص:١٩-٢٠، عالم المعرفة، العدد:٥، الكويت ١٩٧٨.

(٣) هل هي بداية النهاية لأمنا الأرض، للدكتور محمد الرميحي، ص:٣٥، مجلة العربي، العدد:٣٣٢، الكويت، يوليو ١٩٨٦.

(٤) مشكلات الحضارة، للدكتور أحمد أبو زيد، ص:٥، عالم الفكر، ج٢، العدد:٣، ١٩٧١.

(٥) المنهج النبوي والتغيير الحضاري، لبرغوث عبد العزيز مبارك، ص:٨١-٨٢، كتاب الأمة، العدد:٤٣، قطر ١٩٩٥.

(٦) البيئة ومشكلاتها، لرشيد الحمد، ومحمد سعيد صباريني، ص:١٣٩-١٤٠، عالم المعرفة، العدد:٢٢، الكويت ١٩٧٩.

(٧) الدين والحضارة، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ص:١٠٦-١٠٧، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر ١٩٩٦.

hiragate.com

أ.د. الشاهد البوشيخي*

المسلم الشاهد

إن رسالة أمة سيدنا محمد ﷺ منحصرة في الشهادة على الناس، وأما الشهادة على نفسها فغير واردة؛ أيْ إن شهادتها في سواها وليست في ذاتها. لكنها لن تحقق تلك الرسالة في سواها إلا إذا حقّقتها في ذاتها. وبالتالي كُلّفت هذه الأمة بـ"الإصلاح" وليس بـ"الصلاح"؛ إذ هذا أمر كان مطلوبًا من جميع الأمم الإسلامية التي سبقت مذ آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ. ولكن خُصّت هذه الأمة بطلب جديد، وذلك لانتهاء النبوات وختم الرسالات؛ إذ لم يبق نبي بعدُ يرسَل ليجدد للأمة ما فسد وبلي من أمْر دينها.

إذن مَن سيحمِل وظيفة الأنبياء ورسالتهم عليهم السلام؟ أمة محمد ﷺ طبعًا، فهي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ لا لنفسها ولكن للناس. وأُخرجت إخراجًا وفْق مقاييس معيّنة بعناية ربّانية، وما تزال هذه العناية مستمرّة، وستسمر إلى ما شاء الله، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). فعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفةٌ من أمّتي ظاهرين على

الحق، لا يَضرهم مَن خذَلهم حتى يأتي أمرُ الله وهم كذلك" (رواه مسلم).

إن "المسلم الشاهد" هو الذي ينتمي إلى أمة الشهادة، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)، أيْ جعلناكم خيارًا عدولاً وفي مستوى رفيع. وهذا معنى "الوسطية"، لأن الوسطية تعني الرِّفعة، وتعني التأهيل الخاص الذي يكون لمن يجلس في وسط المجلس لأهليته الخاصة، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

مواصفات "المسلم الشاهد"

١– أن يكون مسلمًا: أول صفات هذا الشاهد أن يكون "مسلمًا"، بمعنى أن يسلم أمره إلى الله ﷻ إسلامًا كاملاً وإذعانًا تامًّا، كما قيل لسيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا المعنى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣١-١٣٢). إن الخضوع الحق والدينونة الحقة إنما هي الاستسلامُ لأمر الله تعالى. فالله قد اختار لنا هذا الإسلام ورضيَه لنا دِينًا، فينبغي أن نرضى –نحن– بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيًّا.

إن المسلم الشاهد، هو مَن أسلَم أمره إلى الله ﷻ إسلامًا كاملاً عن رضى واختيار، فهو مطمئنّ إلى أن الذي جاء من عند الله ﷻ هو عَين الحقّ، وأن ما يتّجه إليه منه هو أيضًا عَين الصواب، فيذعن له إذعانًا كاملاً، وإذا قضي له به حكم عليه، فإنه يَرضى كل الرضى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥)؛ أي بالقلْب والقالب. هذه الصفة هي صفة الأساس ننطلق منها، ولكن ليست هي المطلوبة التي تتجلى فيها خصوصية هذه الأمة. نعم، لا تتجلى خصوصية هذه الأمة أن ناسها مسلمون فقط، لأن ذلك كان موجودًا في جميع الأمم، لكن ما بعد ذلك، وهذا يؤهلها لرسالتها. ومن ثم تأتي الصفة الثانية وهي:

٢– أن يكون داعيًا: المسلم الذي يراد له ويُطلب منه، أن يكون شاهدًا على الناس، لا يكون مسلمًا قاعدًا

القدرات والخزائن التي أودعها الله في الكون، ينبغي أن يكون سَبّاقًا إليها المسلمُ من هذه الأمة. وإذا أحسّ المسلم بمعناه وبجوهره؛ ينبغي أن يطلب الإمامة في العلم ليشهد بتلك الإمامة على سواه، وليحسن توجيهه، وإلا يظل تابعًا لغيره.

حراء

ولا مسلمًا جامدًا، بل عليه أن يكون مسلمًا داعيًا مناد لغيره من الناس أن يستجيبوا إلى الله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾(الأحقاف:٣١). إنه داعٍ، وذلك يقتضي أن يؤسّس حياته على هذا الأساس، ويشعر بأن رسالته تتمثّل أول ما تتمثل في أنه داعٍ، ولا يمكن أن يشهد على غيره إلا إذا دعَا. فحين يتقوقَع على نفسه وينعزل عن سواه، ولا يعود مهتمًّا بغيره ممّن فسد أمْر دِينه وأمْر تدَيّنه، أو ممّن لم يعرف قطّ هذا الدين.. فحين لا يهتمّ بهؤلاء، فإنه لا يكون مؤديًا لرسالته، ولا يكون قد اكْتسب صفة من صفات المسلم الذي ينتسب إلى أمة سيدنا محمد ﷺ، إذ رسالتها كامنة في "الشهادة على الناس".

٣– أنه ليس داعيًا إلى "لا شيء": ثالث صفات هذا المسلم، أنه ليس داعيًا إلى "لا شيء" أو إلى الضباب أو إلى الفساد، بل داعيًا إلى الله.. ليس داعيًا إلى نفسه، ولا إلى صورة من صور الطين، ولا إلى أي فكر بشري أنتجه الناس بأهوائهم.. فما سوى الحق، كله هوى وأهواء.. أما الحق فهو واحد، وهو ما جاء من عند الله ﷻ.

فـ"المسلم الشاهد" هو داع إلى الله فقط، وما سوى ذلك مما يمكن أن يقوم مقام الشبهة في هذا الأمر، هو وسائل وأدوات. وقد أُمر رسول الله ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾(يوسف:١٠٨)؛ إنه ﷺ لا يدعو إلى نفسه، ولم يكن يربط الناس به وهو ما هو، إنه أداة مشخصة لهذا البلاغ في صورته النموذجية، إنه رسول الله وعبده. إذن الدعوة ليست إلا لله، والمسلم من هذه الأمة يجب أن يكون داعيًا، ويجب أن يكون في دعوته هذه داعيًا إلى الله سبحانه فقط.

٤– أنه يدعو إلى الله ﷻ بعلم: إن المسلم الشاهد لا يدعو إلى شيء لا يعرفه، بل يدعو إلى الله بعلم. والعلم

hiragate.com

في هذه الأمة يصدق أساسًا على ما كان يقينًا، وما هو يقين هو الذي جاء من عند الله، يقين أنه حقّ. وذلك يقتضي منه أن يَفقه دينه وواقعه، وأن يفقه كيف ينزل هذا الدين على الواقع؛ لأن العلم بالشيء إذا وصل إلى درجة عليا صار فقهًا لذلك الشيء، و"من يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدين" (رواه البخاري)؛ أي يجعله عالمًا بجزئياته وكلّياته، ويجعله عالمًا بعلاقة هذه الكليات بهذه الجزئيات، وبعلاقة المجموع ببعضه في صورة بناء شامل لهذا الدين.. لأنه هو دين ربّاني شامل كامل، وفي شموله لن يشذ عنه شيء، وفي كماله لم يبق خَصَاص فيه يضاف عليه شيء: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة:٣). والاجتهاد البشري إنما يقع ضمن دائرة هذا الكمال، وهو استخدام وإعمال عقل المسلم ضمن دائرة الوحي فيما يَجدُّ مما لم يكن. إذن لا بد من هذه الأركان لتحصيل هذا العلم الذي يصل إلى درجة الفقه، أو ينبغي أن يصل إلى درجة الفقه، ولا بد من العلم بهذا الدين حسب رُتَبه وهي:

أ- العلم بكتاب الله وسنّة رسول الله: العلم بهذا الدين لا بد من التوجه والاجتهاد بتحصيل العلم وتحصيله أساسًا في كلياته؛ في جانبه الإيماني، وفي جانبه الإسلامي، وفي جانبه الإحساني، في جانب أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وأركان الإحسان.. وبصفة عامة يجب أن يقع إلمام شامل لدى المسلم بهذه الأمور. وإن ما يقترحه كثير ممن وفّقهم الله ﷻ للاهتمام بهذا الأمر، من آيات وأحاديث ومواضيع مرتبطة بتلك الآيات وبتلك الأحاديث، إنما هو مرتب على أساس فقه الدين أولاً؛ لأن بالدين يمكن تنزيل أوامر الله ﷻ على الوقائع المتجددة، الخاصة منها والعامة. إذن "الفقه للدين" هو الأساس، وينبغي أن يُجتهَد في تحصيله، سواء على المستوى الفردي، أو مع مجموعة من المسلمين، أو في بيوت الله، أو في أي مكان يحصل فيه هذا العلم.. فالعلم يُعين بعضه على بعض.

ب- لا بد من الاهتمام بالواقع والفقه لكلياته: للواقع في صيرورته التاريخية حركات وفق سنن لهذا التاريخ، ينبغي أيضًا أن يهتم بها الإنسان ليتمكن من العيش بسلام، مسلمًا مؤمنًا داعيًا إلى ربه في هذا الواقع الصعب. إن الواقع -اليوم- الموجود في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها تقريبًا، ليس واقعًا نشأ من كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله ﷺ، أي لم ينبت من الدين، ولم ينتج من تفاعل الوحي مع الزمن ومع الواقع ومع الحوادث، وإنما هو واقع نتج عن تفاعل بقايا من التدين لدى قطع غيار من هذه الأمة، متناثرة في كل مكان.

إن الإسلام يستعمل جميع الحواس في أكمل صورِ استعمالها، وفي أحسن صورِ توجيهها للخير، وذلك لجلب المنفعة ودرء المفسدة. لكن المؤمن كيّس فطِن، وليس بغائب عن العالَم. فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "لستُ بالخِبّ ولا الخِبُّ يَخْدعني".. وإلا فلا أهلية للشهادة، لأن مَن سيشهد عليهم، فيهم العجائب والغرائب، وينبغي أن يكون على بصيرة بكل ذلك.

ومن مجموع الأمرين -من فقه الدين وفقه الواقع- يتكوّن -بالممارسة وبالتفاعل بين الفقهين ببساطة- فقه ثالث يتجمع فيه فقه الدعوة إلى الله ﷻ في ذلك الواقع، وهما على هذا الترتيب: فقه الدين وفقه الواقع.

كما ينبغي ألاّ يسبق أمرُ الواقع أمرَ الدين؛ لأن أمر الدين هو الأهم، وهو الظرف، وهو الميزان الذي يوزن به سواه. فلا بد إذن من طلب العلم، ولكن الأمة مقصّرة غاية التقصير في أمر العلم، إذْ العلم فيه "علم الغيب" ولا سبيل إليه إلا بالوحي، وفيه "علم الشهادة"، والله ﴿هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾(الحشر:٢٢). وعلم الشهادة مشترك بين مَن لديهم وحي، وبين مَن ليس لديهم وحي، لكن الفرق أنّ مَن لهم الوحي ينظرون في الشهادة بعين الوحي فيبصرون ما لا يبصر سواهم ممن ليست لهم إلا أعين كبقية الكائنات الأخرى تقريبًا. أما المسلم الشاهد فيبصر بنور الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾(الحديد:٢٨)، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾(الأنفال:٢٩)، وبفضل هذا النور والفرقان يتمكن المسلم من التفريق بين الحق والباطل. إنه لا يمكن لهذه الأمة أن تفعل شيئًا بغير العلم؛ "علم الغيب"، و"علم الشهادة" معًا.

إن تسخير الكون كان المفروض أن يكون في

hiragate.com

يد هذه الأمة لا في يد غيرها.. هذه الكهرباء، وهذا المغناطيس، والجاذبية، هذه الطاقات، وهذه القدرات والخزائن التي أودعها الله ﷻ في هذا الكون، ينبغي أن يكون سَبّاقًا إليها المسلمُ من هذه الأمة. وإذا أحسّ المسلم من هذه الأمة بمعناه وبجوهره؛ ينبغي أن يبذل أقصى الجهد للتذوق في أي مجال وفي أي ميدان، وينبغي أن يطلب الإمامة في العلم ليشهد بتلك الإمامة على سواه، وليحسن توجيهه، وإلا سيظل تابعًا. وإذا كان تابعًا دائرًا في فلك غيره، وغيره ينتج فكرًا لا صلة له بالوحي، فإذن هو يدور -شاء أم أبى- في غير الوحي وغير الدين. ومن هنا تسمعون أحيانًا الكلام الذي يدور عن "أسلمة العلوم"، وهو كلام ضروري في مجالها، ولكن لا يستطاع الوصول إلى أشياء مهمّة بأمر العلم إلا إذا صار غذاء الأمة بصفة عامة في حياتها اليومية.. هو الاقتيات من العلم بكثرة، والدفع في اتجاه العلم والتضحية في طلب العلم، لكن الواقع حقيقة مؤسفة.

٥- أن يكون داعيًا إلى الله بيقين: إن المسلم الشاهد مؤمن بالذي جاء من عند الله ﷻ إيمانًا لا يتسرّب إليه أدنى ريب أو شك أو تردد. إنه في قرارات نفسه موقن بالذي جاء من عند الله، وبما أمر به الله أنه حق، وبما نهى الله عنه أنه عين الباطل.

إذا علا الإيمان وارتفع صار يقينًا، وقبل أن يصير يقينًا لا ينتج طاعة حقّة، إنما تنتج الطاعةُ من اليقين وحين تصدق صدقًا لا تشوبه ريبة؛ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحجرات:١٥). ويقول رسول الله ﷺ: "اليقين الإيمان كله". الإيمان بضع وستون شعبة، و"اليقين" الإيمان كله، لِمَ؟ لأنه ينتج تلك الشعلة ويمنع أن تتعطل، ولأن الموقن هو واثق بما عند الله، ومتوكل حق التوكل، ومحتسب حق الاحتساب.

كل المعاني الشرعية تتأسس على اليقين، وليس على الإيمان العادي الذي لا يكاد ينتج طاعة. ويمكن أن نضرب مثالاً بالطفل الصغير قبل أن يعلم أن النار تحرق؛ قد تُقرّب إليه النار فيعجبه منظرها ويضع يده فيها، لكن بمجرّد هذه التجربة الأولى يحصل له

المسلم الذي يراد له أن يكون شاهدًا على الناس، لا يكون مسلمًا قاعدًا، بل عليه أن يكون مسلمًا داعيًا منادٍ لغيره من الناس أن يستجيبوا إلى الله، وذلك يقتضي أن يؤسّس حياته على هذا الأساس، ويشعر بأن رسالته تتمثّل في أنه داعٍ، ولا يمكن أن يشهد على غيره إلا إذا دعَا.

حراء

اليقين بأن تلك النار تحرق وأنها ضارّة، وإذا عاودتَ الكَرّة لامتنع.. لو كنا نتعامل مع الأوامر والنواهي بهذا المعنى، لوقفنا ولانتهينا. ولكن الذي يحدث، أن ذلك يكون كأمشاج وبقايا في الذهن؛ فالتدين الضعيف الموجود في الخارج، سببه عدم رسوخ الإيمان في القلب، ويجب أن يقوى هذا الإيمان ليصل إلى درجة "اليقين"، ولكن يقوى بـ"التكرار"؛ أي بتكرار الأفعال والمجاهدات والرياضات.. و"ما تكرر تقرّر".. فيَقْوى بالمقوّيات، سواء في الائتمار أو في الانتهاء، فعل الأوامر وفعل النواهي حسب النظام الشرعي.. إن سرتَ على ما وضّحتْه الشريعة، وعلى الطريق الكبير، فسيحصل لك ذلك.

الصلاة وحدها إن أحسنتَ وضوءها وأحسنت أداءها -وذلك في أوقاتها- وحضرت فيها ولم تكن غائبًا.. إن أدّيت الصلاة حقًّا، بدأ ذلك يتجمع يومًا بعد يوم حتى يأخذ بك إلى هذا النوع من اليقين، وهذا باب من الأبواب. فعن معاذ بن جبل ﷺ قال، قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت"، ثم قال: "ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنّة، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل" (رواه الترمذي)، ولكن هذا بعد الأركان طبعًا. إنما لكل شيء نظام يؤدى بها، فإن أدّي وفق ذلك النظام أنتج النتائج الموجوة، وإذا اختل شرطٌ من تلك الشروط اختلت النتائج: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥).

hiragate.com

ندرك بيقين أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا يمكن أن يكون المصلي فاحشًا ولا مرتكبًا للفواحش. إن الله لا يأمر بـ"الصلاة" وإنما يأمر بإقامة الصلاة؛ وفرق بين التعبيرين، والأكثر في كتاب الله ﷻ إقامة الصلاة، الصلاة مرتبطة بالإقامة: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾، ﴿أَقَامَ الصَّلاَةَ﴾، ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾، ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾.. وإقامة الشيء ليست هي الشيء مطلقًا، الشيء قائم يكون في أحسن صوره؛ فالذي يقيم الصلاة هو الذي يحسن أداءها، فمن أقام الصلاة نتج لديه نتائج الصلاة وآثار الصلاة وفوائد الصلاة.. وإقامة الصلاة تتجلى في ثلاث: أداؤها في الوقت وأوله فيه رضا الله.. وأن تؤدَّى في الشكل باطمئنان وخشوع كما كان يؤديها رسول الله ﷺ؛ عن مالك بن الحويرث ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "صلُّوا كما رأيتموني أصلّي" (متفق عليه).. وأن تُؤدَّى لله؛ يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤)، ليس لذكر شيء سوى الله ﷻ، أي إن الحضور فيها يجب أن يكون مع الله ﷻ وذلك طريقه أن تستحضر معاني الألفاظ التي تستعمل، وإذا دعوت في السجود دعوت كذلك بقلب حاضر.

الدعوة إلى الله بيقين؛ هي أن الذي يُدعا إليه هو عين الحق، ولا حق إلى جانبه أو معه أو بدلاً منه في هذا الكون.. لم يبق للحق في هذا الكون إلا مصدر واحد هو الذي نزل على محمد ﷺ قرآنًا وسنّة صحيحة؛ فعن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه" (رواه أبو داود). هذا وحده عين الحق الذي بقي خالصًا لا تشوبه شائبة، ومن ثم يجب أن يلتزم به ويحمل إلى من لم يصل إليه.

٦- أن يدعو إلى الله بحكمة: دائمًا عندنا صفة مسلم يدعو لا تتخلف، وهي دائمًا موجودة، وحين لا يكون داعيًا لا يكون من هذه الأمة يدعو إلى الله بحكمة. والحكمة هي الخُلق الحسن، وإصابة الحق.. قال الله ﷻ في سورة الإسراء بعد آيات كثيرة تتحدث عن أخلاقٍ وصفات حسنة ينبغي أن يتخلق بها المسلم، في نهايتها قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾(الإسراء:٣٩). ولقمان الذي أوتي الحكمة قال مثل ذلك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾(لقمان:١٢).

فالحكمة هي التزام هذا الدين والعمل به في أعلى صور الكمال وفي أحسن صورة. إن طَبّقتَ هذا الدين على أحسن صورة كنتَ حكيمًا. إذن الدين ينبغي -وما كان له- ألاّ يقف عند حد إحداث أثر في العقل، أو إحداث أثر في القلب، ثم لا يظهر ذلك الأثر في السلوك؛ لأن هذه القطيعة غير مفهومة في القرآن الكريم. اللفظ القرآني يساوي معناه داخليًا وخارجيًا، ويطلب أن يتساوى وأن يتطابق في جوانبه الثلاثة: قلبًا وقولاً وعملاً. والمسلم عليه أن يوحّد، وأن يصير واحدًا، لأنه إذا كان باطنه غير ظاهره، اتجه نحو دائرة النفاق، وإذا كان ظاهره مخالفًا للحق أصلاً، اتجه إلى جهة الكفر الصريح، وإذا تطابق قوله وعمله مع اعتقاده، وطابق اعتقاده الحق، في هذه الحال يكون واحدًا، وذا خُلق حَسن، وحكيمًا، أي يتصرف بحكمة. فالحكمة هي حين يرتفع مستوى الخُلق الحسن إلى درجة عالية ورفيعة جدًا. يرد في الحديث المروي عن أبي أمامة ﷺ قال: قال ورسول الله ﷺ: "أنا زعيمٌ ببيتٍ في أعلى الجنة لمن حَسُن خُلُقه" (رواه أبو داود)؛ حسَّن خُلقه بالمجاهدة والرياضة التي يُشعر بها هذا اللفظ وهذا النُطق.

إننا نحن المسلمين قد ضربنا الرقم القياسي في سوء الأخلاق؛ في "المواعد" -على سبيل المثال- شاع في بيئتنا أن يقال "عنده كلمة فرانساوية"، ومعنى هذا أنه يلتزم بالموعد بالضبط في الوقت الذي وقع عليه الاتفاق، والذي يفعل ذلك ليسوا المسلمين الذين يوجدون في الواقع، وإنما يفعله غيرهم، ويفعله الفرنسي الذي إذا قال كلمة لا يتزعزع فيها. ونحن نعلم أن سلفنا كان يقول "الكلمة روح"؛ يعني يمكن أن يفدي روحه لكلمة صدرت منه ولا يتنازل عنها، لأنه -أولاً- لم يقُلْها إلا وقد تبيّن فيها. عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلْيَقُلْ خيرًا أو ليصمتْ" (رواه البخاري)، فإن عاهد فـ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(المائدة:١). هذا هو الأصل، فكيف صارت هذه الأخلاق الحسنة -إذن- لدى غيرنا؟ ذلك هو السبب في ولاية غيرنا علينا، وإذا أردنا أن تزول هذه الولاية، ينبغي أن نعود إلى الأخلاق القرآنية، وأن يصير

hiragate.com

خلُقنا خلُق رسول الله ﷺ الذي هو القرآن. فإذا صار القرآن خلُقًا لنا، ذاك سيجعلنا حكماء في الدعوة.

٧- أن يدعو إلى الله بقوة: يقول تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم:١٢)، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣). الأخذ -أخذ الحق بقوة- هو فعلُ أُولي العزم، ورسول الله ﷺ من أولي العزم، وأمّته أيضًا، إنها مجتباة مختارة مصطفاة: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾(الحج:٧٨). فينبغي أن يُسار في المسار الذي سار فيه رسول الله ﷺ، وذلك يعني الاستعداد الكامل للتضحية بكل غال ونفيس. إن الله ﷻ طلب منا أن ندخل في السِّلم كافة، بأموالنا وأوقاتنا وطاقتنا وأجسامنا وعقولنا، وبكل ما رزقنا.. أن ندخل في الإسلام، ونكون مستعدين لاسترخاصه في سبيل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾(البقرة:٢٠٧).

إنها قاعدة عامة لمن آمن بالله ﷻ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾(التوبة:١١١). فماذا بقي إذن؟ ماذا يملك الإنسان من غير نفسه وماله؟ إن الله اشترى، ومن أراد أن يبيع باع وإلا بقي في الخارج. السلعة موجودة وسيؤدَّى ثمنُها في وقتها. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾(البقرة:٢١٤).. عندما يشتد الظلام يقترب الفجر. وكلما اشتد الظُّلم والبغي اقترب موعد الحق، وسلعة الله غالية. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" (رواه الترمذي). وعن أبي هريرة ﷺ -أيضًا- قال: قال رسول الله ﷺ: "حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره" (رواه البخاري).

الإسلام بناء، والإسلام صعود، والإسلام عقبة.. إذا كنت في سفح جبلٍ وأردت الصعود، فعليك أن تبذل مجهودات جبارة.. قد تحتاج أحيانًا إلى رياضة تَسلُّق الجبال لتتمكن من الوصول، ولكنه يسير كما قال ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على مَن يسّره الله تعالى عليه". ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدرسات العلمية (مبدع) / المغرب.

سفينة الإنسانية

راكبون.. على ظهر الدنيا مسافرون..
يتقاذفنا الموج، ثائرًا مرةً، ورخيًا أخرى..
ونحن مرعوبون إذا ثار، وخائفون إذا سكن..
ولكننا توّاقون، وإلى الطمأنينة مشتاقون..
والقلبُ في دواخلنا ينادي:
﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾..
فيا مسافر! إلى وطنك الأول عُدْ،
وإلى مستقر روحك أُسْمُ،
تطمئن نفسك، ويسكن روحك.

* * *

د. جمال بن فضل الحوشبي*

قيمة المرء لدى الحق تعالى بقدر صفاء روحه وسموّها. لا تَطربْ لمدح الناس ولا تنتشِ بمحبتهم. تتطاولُ بلا جدوى، وتتعاظمُ وأنت أضأل من ذرة تراب. ولربما ازدرتْ عيناك إنسانًا ذا طِمْرين لو أقسم على الله لأبرّه. إياك أن تفعل ذلك فتسقط في عين الله تعالى إلى الأبد.

الموازين

المجدِّدون

١

الناظر إلى حال البيئة العربية قبل تلك الليلة الشريفة التي بزغ منها نور الوحي بقرب حراء، يخال له بأن ذلك الشتات المتنافر لن يتّحد أبدًا، ولن ينضوي تحت راية واحدة أبدًا.. لقد كان الواقع كئيبًا، فعلى الصعيد الإيماني ضرب الشرك بأطنابه في كلّ أرجاء الجزيرة، وبلغ الواقع السياسي أدنى دركات التردّي؛ فالأحقاد القديمة المتراكمة عبر القرون لا يمكن تناسيها، وسريعًا ما تثور الحروب بين القبائل المتناحرة لأتفه الأسباب، وقبائل الشمال والغرب تدين

بولائها الكامل لهذه الإمبراطورية أو تلك. وأما الحالة الاجتماعية فقد صورها جعفر بن أبي طالب ﷺ بقوله: كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منّا الضعيف.

غير أن المعجزة حدثت بعد عشرين سنة فقط من البعثة المحمدية. وعلى أنقاض ذلك الركام البائد ظهرت أمة واحدة قوية، تجمّعت أطرافها، واكتملت هويتها، واتضحت رسالتها، واتسعت رقعتها حتى بلغت المشرق والمغرب. قال ﷺ: "لَيبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو ذُلّ ذليل، عِزًّا يُعزّ الله به الإسلام، وذُلاً يذلّ الله به الكفر" (رواه ابن حبان).

من الغربة كانت البداية

التجديد، رحمة الله تعالى بهذه الأمّة.. وبداية السنا والرفعة كانت على أيدي "الغرباء" الأوائل الذين حملوا الراية، وآمنوا بالمهمّة، وصبروا على مشاقّ الطريق حتى قام على أكتافهم هذا البنيان العظيم. وسيكون كذلك في آخر الزمان، قال ﷺ: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء" (رواه مسلم)، وفي رواية أخرى: قيل: يا رسول الله، من الغرباء؟ قال: "الذين يَصْلحون إذا فسد الناس" وفي لفظ آخر: "يُصلِحون ما أفسد الناس من سنتي"، وفي لفظ: "هم النزّاع من القبائل"، وفي لفظ آخر: "هم أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير"؛ وفيه بشارة بانتصار الدين ورفعته، والمعنى، كما بدأ الإسلام غريبًا ثم انتشر إلى أقطار الأرض، فكذلك حاله في آخر الزمان. عن عمرو بن عبسة ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، من أسلم معك؟ قال: "حُرٌّ وعبد" (رواه ابن ماجه).

والمجدّدون هم الغرباء الذين يرحم الله تعالى هذه الأمة في فترات الضعف والهوان. عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (رواه أبو داود).

إنّ المجدّد غالبًا ما يظهر في بيئة غير نقية؛ مليئة بالمتناقضات، ومفعمة بالنكسات، مع أفراد غير صالحين، أو صالحين غير مؤهلين، ثم لا يلبث إلا فترة وجيزة حتى يقيم الله تعالى به الملة العوجاء، ويحيل به البيئات الخاملة مجتمعاتٍ مثاليةً في الطهر والصلاح، والأفراد إلى نماذج راقية في العلم والأخلاق والكفاح.

حراء

وإذا كانت الرحمة التي بعث الله تعالى بها محمدًا ﷺ قد أصابت البشر كلهم، فإن أسعد الناس بهذا الرحمة أمته ﷺ؛ فهي وإن كانت آخر الأمم من جهة الزمان، إلا أنها السابقة على جميع الأمم من حيث الفضل والشرف، حيث تكفّل الله لها بحفظ كتابه الذي به عصمتها، وكتب لها الغلبة على عدوها، وحماها من الهلاك العام حتى غدت أمة فتيّة لا تهرم ولا تذوي فتوّتها.. عصيّة على الفناء، بعيدة بمجموعها عن التزام الشرك والظلم والفساد. عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ مُلك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها" إلى قوله: "ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (رواه أبو داود).

المصلحون هم الأساتذة الكبار

المجدّد بشر من البشر، لا يخرج من الأرض ولا يهبط عليه الوحي من السماء. قد يكون مُلهمًا نعم، لكنه ليس معصومًا عن الزلل.. إنه يمارس الحياة كغيره، ويذوق معاناة الناس، ويصيبه من الأذى والفرح ما أصابهم.. غير أنّه نِتاج رعاية خاصّة من كوكبة مباركة من العلماء المصلحين الذين نذروا أنفسهم لتعليمه وصقل شخصيته.

وظهور قوة المجدّد أو ضعفه بعد ذلك -من حيث العلم والعمل- بقدر قوة أولئك المصلحين أو ضعفهم؛ فمجدّد كالشمس، ومجدّد كالقمر، ومجدّد كالنجم،

hiragate.com

شهد تاريخ المجدّدين الأوائل ظهور الكثرة الكاثرة من المصلحين، حتى إنّ المئات منهم ربما تقاطروا صفًّا لتمهيد الطريق أمام مجدّد واحد، يزيحون عن طريقه الشوك، ويوطئون له القلوب والعقول حتى يبلغ تمامه، ويتسلّم الراية من جديد.

ومجدّد كالسراج.. هذا في مقدار النفع العام وظهوره، وكذلك الحال في سعة شمول العلم وكماله؛ فمجدّد أحاط بعلوم الشرع وظهر أثره في واقع الناس، ومجدّد أحاط بعلوم الشريعة أو بعض فنونها ولم يظهر أثره في الواقع إلا بمقدار ما أخرجه إلى دائرة المجدّدين دون سائر علماء عصره.

ومن هنا فالمجدّد لا يكون إلا عالمًا عاملاً.. وهو من أعيان الطائفة الأولى المباركة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا، فكان منها نقيةً قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (متفق عليه).

والمصلحون جند مجهولون، لا يعلمهم إلا الله، وهو الذي يؤلّف قلوبهم تجاه هذا المجدّد أو ذاك؛ حتى إنّهم ليُسهروا ليلهم، ويُجهدوا نهارهم لتزكية روحه، وتفتيق عقله، وتبصيره مراد ربه سبحانه.

وقد شهد تاريخ المجدّدين الأوائل ظهور الكثرة الكاثرة من المصلحين، حتى إنّ المئات منهم ربما تقاطروا صفًّا لتمهيد الطريق أمام مجدّد واحد، يزيحون عن طريقه الشوك، ويوطئون له القلوب والعقول حتى يبلغ تمامه، ويتسلّم الراية من جديد.

بيئة ظهور المجدد

إذا أردت أن تعرف آثار المجدّد الحقّ وبركته في هذه الأمّة، فقارن بين حال البيئة التي بدأ منها، ومآل البيئة التي مات عنها.

إنّ المجدّد غالبًا ما يظهر في بيئة غير نقية؛ مليئة بالمتناقضات، ومفعمة بالنكسات، مع أفراد غير صالحين، أو صالحين غير مؤهلين، ثم لا يلبث إلا فترة وجيزة حتى يقيم الله تعالى به الملة العوجاء، ويفتح به أعينًا عميا، وآذانا صُمّا، وقلوبًا غلفًا، ويحيل به البيئات الخاملة مجتمعات مثالية في الطهر والصلاح، والأفراد إلى نماذج راقية في العلم والأخلاق والكفاح.

وبيئة الجهل هي التي تسبق ظهور المجددين من هذه الأمة، وتعقب قبض العلماء، سواء بفقدهم حال موتهم الحسّي، أو موتهم المعنوي بفقد أدوارهم واتباع شهواتهم رغم كثرتهم. عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتّخذ الناس رؤوسًا جُهّالاً؛ فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا" (رواه البخاري).

ورؤوس "الضّلال" هؤلاء سريعًا ما يتصدّرون المشهد -أو يُصدّرون له- عند اضطراب الفتن، وسريعًا ما يُفتضح أمرهم كذلك عند ظهور قوة الحق الدامغة على أيدي المصلحين والمجدّدين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(الأنبياء:١٨).

وكما أنّ الظلم المجرّد، حالة تستوجب العقوبة. فإنّ الجهل المجرّد حالة تتنزّل معها الرحمة وهي أحرى بقبول الهداية من غيرها، بشرط عدم اقترانها بالظلم المستوجب للعقوبة، أو الهوى الذي يصدّ عن الحق.. ونور العلم أعظم رحمة تحلّ في بيئات الجهل تلك. وفرق بين واقع يفشو فيه "الجهل" لغياب العلم وأهله، وآخر تستحكم فيه "الجاهلية" لعدم وجود الحق وأهله. ولذا لا تُطلق "الجاهلية" على هذه الأمّة المرحومة

hiragate.com

بمجموعها بعد بعثة نبيها؛ لأنه لا يُعدم فيها قائمون بالحق حتى في أحلك الأوقات وإن لم يكونوا ظاهرين به.

ومن هنا فتخلّف العلم -وأعظمه علم الكتاب والسنة- أو العدل -وأعظمه التوحيد- في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة، لا يعني بالضرورة ذهاب الدين كلّه ولا زوال العلم برمّته؛ لأنّ الحجة ثابتة والكتاب محفوظ، وإنما التخلّف في حال من يُقيم تلك الحجة في الناس، أو يتمثل شرائع الدين ويقيمها في واقع المحيطين به.

المجدّد لا يكون إلا عالمًا وداعيًا للاجتماع على الحق

مقتضى التجديد يتطلب معرفة الله تعالى بالحبّ والخوف والذلّ، ومعرفة مراده بالعلم والعمل، والدّعوة والصبر. ولما انقطعت النبوة بعد رسول الله ﷺ، واحتاج الناس لمن يجدد لهم دينهم، أضحت مهمة العلماء في هذه الأمة كمهمة الأنبياء سواء بسواء، إلا أنه لا يوحى إليهم. عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة.. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر" (رواه أبو داود).

وما سمّاهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة. قال السعدي رحمه الله: ومن أعظم الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء[1].

والناظر في حال هذه الأمة يجد أنها أمة اجتماع واعتصام، ولذا كان المجدّد العالم فيها داعية رحمة، وقدوة في الاعتصام بالحق.. لا يعارض كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ الصحيحة بقياس، ولا ذوق، ولا كشف، ولا قول شيخ، ولا ولي، ولا إمام.. ونحوها من أسباب تفرّق الأمة وذهاب ريحها، رحمة من الله تعالى، قال ﷺ: "إن الله أجاركم من ثلاث خِلال: أن لا يدعو عليكم نبيُّكم فتهلكوا جميعًا، وأن لا يَظهر أهلُ الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة"، وقوله ﷺ: "إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة"[2].

ولأن جديدَ هذه الأمة قديم، وقديمها جديد، فالمجدّد فيها لا يتكلّف الإتيان بجديد يعارض به التليد، بل على العكس.. لا تصحّ مهمته إلا بإعادة الناس إلى عصر السعادة، بل إلى اليوم الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأتمّ به النعمة على المؤمنين، ثم لا عليهم بعد ذلك أن يسابقوا في علوم الذرة والصناعة والتكنولوجيا وارتياد الفضاء. عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أيّ آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة. والمحفوظ أنه ﷺ مكث بعد نزول هذه الآية واحدًا وثمانين يومًا، ثم قبضه الله إليه. ■

المصلحون جند مجهولون، لا يعلمهم إلا الله، وهو الذي يؤلّف قلوبهم تجاه هذا المجدّد أو ذاك؛ حتى إنّهم ليُسهروا ليلهم، ويُجهدوا نهارهم لتزكية روحه، وتفتيق عقله، وتبصيره مراد ربه سبحانه.

(*) المشرف العام لمركز رؤية الثقافي بمكة المكرمة / المملكة العربية السعودية.

الهوامش

(1) تفسير السعدي، ١/٣٦.

(2) حديث حسن، أخرجه ابن أبي عاصم عن أنس ﷺ، انظر: صحيح الجامع، حديث رقم: ١٧٨٦.

hiragate.com

أ.د. الشريف حاتم العوني*

حدد هدفك، وعيّن غايتك، ثم اعمل. اُسمُ بهدفك، وارفع من غايتك، وفي سبيل الله اسعَ. فأمر معيب أن تكون وسائلك دون غايتك رفعة وسموًّا. إذا انحطّت الوسائل، ضاع سعيك وتبدد نشاطك، وربما هبطتَ بهبوطها، وسقطتَ أسيرًا بقيودها.

الموازين

الإسلام والسِّلم العالمي

يأتي الحديث عن "الإسلام والسِّلم العالمي" في أحد أهم الأوقات، حيث إن العالم بعامة والعالم الإسلامي بخاصة، والشرق الأوسط منه على وجه الأخص، يمر بتأزّم خطير، وبخطوات متسارعة نحو اشتداده وتَمدُّده، وقد طالت آثارُه أقطارًا بعيدة عن الشرق الأوسط، في الغرب وغيره. مما يُوجب السعيَ الجادَّ لإيجاد حلول حول هذا التأزم ومحاولة تخفيفه، حتى لا يُشكِّل خطرًا موقوتًا مُؤْذِنًا بالانفجار في أي لحظة. وهذا الأمر يستدعي معرفةَ أسباب هذا التأزُّم، ومحاولةَ البحث الجاد الصادق المنصف في حصرها، دون إغفال سببٍ منها على حساب سبب آخر، كما نشاهده في أغلب الأطروحات: فالغرب كثيرًا ما يجعل المشكلة شرق أوسطية بحتةً، أو إسلامية (وكأنها مشكلة المسلمين مع الإسلام نفسه)، ويتبرّأ من أي دور في تأجيج نارها، والعالم الإسلامي كثيرًا ما يتبرّأ منها، بدعوى أنه أول المصطلين بنارها.

والحقيقة أن أي بحث صادق منصف لا يمكن أن ينطلق من مبدأ تبرئة الذات، بل من منطلق رؤية الحقيقة بكامل تفاصيلها ولو اتهمت تلك الرؤيةُ الذات.

والحقيقة الأهم، أنه بغير هذا البحث الصادق المنصف، لن نصل لأي حل. فلا العالم الإسلامي بالغبيّ لكي تنطلي عليه التُّهم الجزاف التي لا واقع لها، ولا الغرب بالقوة التي يمكنه معها أن يلفتنا عن

ثوابت ديننا لمجرد أنها لا تناسبه.. ولا الغرب بالأحمق ليصدّق أن بعض المسلمين بُرآءُ تمامًا من أن يكون لهم دور في صناعة هذا الاحتراب، ولا نحن (معشر المسلمين) بالذكاء الكافي لنخفي حقيقة تقصيرنا (دولاً وعلماء ومفكرين) في مواجهة هذا التأزّم بالقوة الكفيلة بتجفيف منابعه الفكرية أولاً، وبقية منابعه ثانيًا.

ولست -في الحقيقة- مع من يُلقي اللوم على الغرب أكثر، بحجة أنه الأقوى والأقدر على تصحيح الواقع، وإن كنت قد ألقي عليه اللوم أكثر من جهةٍ أخرى، وهو إذا ما استطعت أن أُثبت دوره الفعلي في تأزيم الواقع، وإذا أَثبتُّ أنه أكبر من أي دور.

نعم لست مع من يُلقي اللوم على الغرب أكثر بحجة أنه الأقوى؛ لأننا إذا كنا -معشر المسلمين- قد شاركنا -بوجهٍ ما- في تشكيل هذا الواقع، فنحن أيضًا ملومون، وسيكون لومنا أكبر من وجه، لأن المشكلة مشكلتنا، ونحن أولى من سعى إلى تصحيحها. ولا يمكن أن يكون غيرنا ملومًا أكثر منا -من هذا الوجه- ما دمنا نعترف بوجود خلل لدينا لم نصلحه في أخطاء تصوراتنا عن بعض جوانب ديننا، وفي القيام بعملية تصحيح لبعض اجتهادات علمائنا التي جانبت الصواب وكانت سببًا من أسباب هذا التطرف والغلو الذي نشاهده.

إنني أُومِن أنّ أيَّ دينٍ لم تحرفه العقولُ الضعيفة ولا الأنفس المريضة، سيكون داعيًا للرحمة والعدل والسماحة والتعايش، سواء أكان دينًا صوابًا في أصله -وهي الشرائع الربانية التي نزلت على الأنبياء ﷺ كاليهودية والنصرانية والإسلام- أم كان دينًا باطلاً وضعيًّا؛ لأن حكمة العقلاء ومصالح البشر، سوف تصقله ليكون حكمةً بشرية تنشد الرحمة والعدل حسب قدرتها البشرية.

هذا ما أُومن به، ويصدقه واقع الأديان. ولا تنحرف الأديان عن ذلك إلا مع تحريفها هدايةَ الله تعالى المنزّلةَ على رُسُله وأنبيائه ﷺ، من خلال الفهم الخاطئ للدين أو تحريف نصوصه المقدسة (وهي كتب الله تعالى المنزّلة). أو إذا استولى على وضع قوانين الدين الوضعي غير العقلاء، فابتعدوا به عن حكمة البشر

إن البشر جميعًا مرجعهم لآدم وحواء ﷺ، فهم جميعًا من أصل واحد. واعتقاد التساوي بين بني البشر هو أساس الاحترام المتبادل، وأساس إعطاء الإنسان حقّه الإنساني مهما اختلف عرقُه أو لونه أو لسانه (لغته) أو بلده.

حراء

وعقل الأسوياء ورحمة الإنسان الفطرية.

فإذا جئنا إلى الإسلام، وهو الدين الخاتم الذي لا يقبل الله من الناس دينًا سواه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾(آل عمران:١٩)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران:٨٥).. فإننا نتحدث عن دين كامل، محفوظ كتابه (القرآن الكريم)، مصونة سنة نبيه ﷺ.. فسوف نجد أنفسنا أمام عظمة الرحمة ورسوخ العدالة واتساع السماحة وطمأنينة التعايش.. كما لا نجده في نظام آخر، رغم كونه هو الحق الرباني الوحيد، ويمتلك من أدلة حَقّانِيّته ما يكفي أن يؤمن عليه البشرُ كلُّهم لو اتّبعوا براهينَ الحق وأدلةَ الصدق.

من قواعد الإسلام ومنطلقاته

١- تقرير الإسلام وجودَ الاختلافِ القدريّ بين البشر في الأديان، وأنه خلاف لن يزول إلى قيام الساعة: مما يعني استحالة زوال هذا الاختلاف. والإسلام لا يجيز السعي إلى المستحيل قدرًا؛ لأنه سعيٌ يُكذِّب بالقدر، وتكذيب القدر لا يقع من مسلم.

فكيف يُتصوَّر -بعد ذلك- أن الإسلام يُشرّعُ أحكامًا وتشريعات -باسم الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- لزوال هذا الاختلاف بالكلية، وهو نفسه يقرّر بقاءه القدَري الذي لا يمكن أن يزول بجهدٍ بشري أبدًا؟! يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩).

وقد فسّرها الحسن البصري بقوله: "الناس مختلفون على أديان شتى"، وقال مجاهد: "أهل الحق وأهل الباطل". وفسّر الحسن البصري قوله: ﴿وَلِذَلِكَ

hiragate.com

خَلَقَهُمْ﴾، فقال "للاختلاف خلقهم"، وفسّر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، قال: "أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافًا يضرُّهم". فلم يَنْفِ الحسنُ البصري الاختلافَ كلَّه عن أهل الإسلام، وإنما نفى عنهم الاختلافَ الضارَّ الذي يحرِّفُ عقيدةَ التوحيد، أو يكون به المرءُ خارجًا عن ملة الإسلام.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(الرعد:٣١).

والآية تسأل سؤالاً استنكاريًّا، أي: كيف لم ييأس المؤمنون من إيمان جميع الخلق؟! قال ابن كثير في تفسير ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ﴾: "أي، من إيمان جميع الخلق". وذكر ابن عطية وغيره احتمال الآية لهذا التفسير فقال: "أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة، علمًا منهم أنْ لو يَشاء الله لَهَدى الناسَ جميعًا". ثم بيّن الله تعالى بقاء أهل الكفر معرَّضين لعقوبة الله تعالى الواقعة بهم في الدنيا، أو المذكِّرةِ لهم باحتمال وقوعها بهم؛ حيث يعلمون بوقوعها قريبًا منهم إلى أن تقوم الساعة.. مما يعني بقاء الكفار المخالفين لأهل الإسلام إلى يوم الدين.

٢- عدم جواز الإكراه على الدين: يقول تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦). وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢).

٣- مساواة الإسلام بين البشر مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم: ويبدأ ذلك من التذكير بأن البشر جميعًا مرجعهم لآدم وحواء ﷺ، فهم جميعًا من أصل واحد. ولا شك أن تساويهم في الأصل، لا يوجب لعرق منهم فخرًا ولا تعاليًا على عرق، ولا للون على لون.

واعتقاد التساوي بين بني البشر هو أساس الاحترام المتبادل، وأساس إعطاء الإنسان حقَّه الإنساني، مهما اختلف عرقُه أو لونه أو لسانه (لغته) أو بلده.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١).

وفي كتاب الله آية عظيمة في المساواة بين بني البشر، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

وفي هذه الآية بيان الحكمة من كون الناس شعوبًا وقبائل مختلفة الأعراق واللغات والأوطان، وهي التعارف. ولك أن تقف من هذه الكلمة وقفة طويلة، لتستجلي مغازي هذا "التعارف"، بصيغة المفاعلة (تعارف)، والتي تعني استفادة كل شعب من الآخر، وأن هذا الاختلاف سينفع الجميع بهذا التفاعل المعرفي، مما يعني عدم وجود شعب ينفرد برتبة الأستاذ المعرِّف، وشعبٍ ينزل دومًا إلى مرتبة التلميذ الملَقَّن.. بل الجميع يمارس أستاذيةً وتَتَلْمُذًا في الوقت ذاته وفي أوقات وأعصارٍ مختلفة.

ثم تختم هذه الآية هذا التقرير الإنساني -بكل معنى الكلمة- ببيان سبب التفاضل الحقيقي، وهو "التقوى" بمعناها الشامل للاهتداء بهدي الخالق سبحانه في شؤون الدنيا وعمارتها بالحق، وفي شؤون الآخرة وعمارتها بطاعة الله تعالى وتحقيق العبودية له وحده. فلا تمايز لبشر على بشر بشيء من الأمور الخِلقية غير المكتسبة كالعرق واللون والوطن، إنما يكون تفاضلهم عند الله تعالى بطاعتهم المكتسبة الاختيارية لله ﷻ. لتضع لنا الآية بذلك قاعدة التفاضل الكبرى بين البشر، وأنها لا تكون بمجرّد الأمور الجِبِلّيّة، وإنما بالأمور الاختيارية المكتسبة: أما عند الله تعالى فبطاعته الشاملة لصلاح الدنيا والآخرة، وأما عند الناس في الدنيا فبإصلاحك الدنيا. وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (رواه البخاري).

وفي خطبته ﷺ الشهيرة أيام التشريق بمنى في حجة الوداع، قال ﷺ: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود

hiragate.com

على أحمر؛ إلا بالتقوى" (رواه أحمد).

وقارنوا هذه العقيدة الرسالية التي يؤمن بها جميعُ أتباع الرسل، وهي أن البشر كلهم أبناء آدم عليه السلام بعقيدةٍ تعارض ذلك، مبنية على نظريةٍ أو فرضيةِ داروين في التطوّر، إذ تفترض هذه العقيدة تطوّرَ الإنسان من أصولٍ مختلفة من سلالة حيوانية أو سلالات كالقرود. ألا يدخل على هذه العقيدة المبنية على هذه الفرضية أن يكون بعض البشر أرقى أصلاً وأفضل تكوينًا من بعض؟ إما من جهة اختلافهم في الأصل، أو من جهة تَقادُم تطوّر بعضهم على بعض، أو سرعة تكيُّفِ بعضهم أسرعَ من بعض، مما يجعل بعضهم أكثر إنسانية و"أرقى" من بعض؟!

٤- نظرة التكريم للبشرية في الإسلام وتعظيمه لفطرتهم: قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

وقال تعالى عن الفطرة السوية لبني البشر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠).

وقال ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء" (رواه مسلم).

وما دامت الفطرة البشرية فطرةً خيّرة فاضلة، فالإسلام موافِقٌ لها في أصول المعتقد وتفاصيل الأحكام. ولذلك فقد جعل الإسلام لزوم الإنسان فطرته التي فُطر عليها، دليلاً على خيريّته وعلى سلامة طبعه من الانحراف عن أصله الكريم. ففي حديث الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ أُتيَ بقدحين (أو ثلاثة)، في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، (وورد أن في الثالث عسلاً)، فلما اختار ﷺ اللبنَ، قال له جبريل عليه السلام مُثْنِيًا على اختياره هذا: أصبتَ الفطرة.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "لا تزال أمّتي بخيرٍ -أو قال: على الفِطرة- ما لم يُؤخّروا المغربَ إلى أن تَشتَبِكَ النجوم" (وراه أبو داود). وتنبهوا

إذا جئنا إلى الإسلام فسوف نجد أنفسنا أمام عظمة الرحمة ورسوخ العدالة واتساع السماحة وطمأنينة التعايش.. كما لا نجده في نظام آخر، رغم كونه هو الحق الرباني الوحيد، ويمتلك من أدلة حَـقّانِـيّـتِه ما يكفي أن يؤمن عليه البشرُ كلُّهم لو اتّبعوا براهينَ الحق وأدلةَ الصدق.

كيف زاوج الراوي بين "الفطرة" و"الخيرية"، لتعلموا كيف استقرّ في قلوب المسلمين أن فطرة الإنسان هي الخيرية نفسها.

وهكذا يكون الإسلام -عقيدةً وشرائع- هو الموافق للفطرة البشرية الفاضلة.

ولذلك لا نستغرب إذا كان مصطلح "الإنسانية"، -كلفظ دال على الطبع الكريم، والقيم الرفيعة- مصطلحًا إسلاميًّا بامتياز؛ لأن الإسلام يَعدّ الإنسان مخلوقًا مكرّمًا بأصل خلقته، وأنه وإن تطوّرت حياته، وإن زادت كثيرٌ من معارفه الكونية، وإن تقدمت مكتشفاته ومخترعاته، فلا يعني شيْق من ذلك أنه تطوّر من مخلوق دنيء الطباع، همجي الأخلاق، هزيل القيم، إلى إنسان جديد هو إنسان العصر الحديث. بل الإنسان من أصل خلقته، كريم الطباع، سامي الأخلاق، صاحب قيم راقية.

فإذا كان الإسلام يوجب اعتقاد الخيرية في أصل طبيعة البشر، ويؤكد ذلك بالتكريم الإلهي لهم، وبإحسان خلقهم، وبكون فطرتهم سوية، وأن هذه الفطرة لا تتبدل أبدًا وإنْ رانها ما رانها من أثر البيئة والتعليم الفاسد، فكيف لا يكون الإسلام مستعدًّا غاية الاستعداد للتعايش مع هذا الجنس البشري المكرّم الخيّر في فطرته وأساس خِلْقته؟!

٥- قدرة الإسلام على استيعاب الإيمان (الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام): لا يوجد دين سماوي عنده قدرة استيعاب غيره كالإسلام، بل لا قدرة لليهودية أن تستوعب النصرانية والإسلام؛ لاعتقاد اليهود كذب دعوة المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ولا قدرة للنصرانية أن تستوعب الإسلام؛ لتكذيبها بنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

hiragate.com

أما الإسلام فيوجب علينا الإيمان بجميع الرسل، حتى كان ذلك من أركان الإيمان عند المسلمين، التي لا يصح إيمان عبد إلاّ بها. بل يوجب الإسلام علينا الإيمان بالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وكل كتب الله تعالى، إيمانًا بصحة أصولها لا بالمتبقي منها، والذي طاله التبديل والتغيير والنقص والزيادة.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥).

وقال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٦).

وفي حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ أنه قال له: "فأخبرني عن الإيمان؟ فقال ﷺ: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره" (رواه مسلم).

وهذه القدرة على الاستيعاب في الإسلام والتي ينفرد بها، كثيرًا ما يتغافل عنها المتعصبون ويُخفيها المدلّسون من متعصبة الأديان الأخرى.

ولو طالع اليهود مقدار تعظيم المسلمين لأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام: بدءًا بإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وقوفًا عند موسى عليه السلام، ومرورًا بداود وسليمان وأيوب ويونس وغيرهم عليهم الصلاة والسلام جميعًا، لعلموا أن المسلمين أولى بهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منهم، توقيرًا وتنزيهًا عن القبائح التي نسب اليهود كثيرًا منها إلى غالبهم.

وهل يعلم النصارى أنه قد ورد اسم مريم في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، وأن سورة من القرآن قد سُمّيت باسمها، وأنها كانت في القرآن مضرب المثل للمؤمنات؟ ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾(التحريم:١١-١٢).

هل يعلم النصارى أن مريم العذراء عليها السلام عندنا هي سيدة نساء العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٤٢).

هل يعلم النصارى أن النبي ﷺ بيّنَ فضلَ ابنته الزهراء فاطمة رضي الله عنها على نساء العالمين، ولم يستثنِ أحدًا من النساء من تفضيله هذا لابنته إلا مريم بن عمران عليها السلام وحدها؟ فلم يُفضّل بَضعته الزهراء رضي الله عنها وهي أحبّ بناته إليه، حيث قال ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها أنها: "سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران" (رواه أحمد).

فهل يوجد استيعابٌ أعظم من هذا الاستيعاب، والذي تجاوز مجردَ أن يستوعب الإسلامُ بإيمانه الإيمانَ بالمعظَّمين من الأنبياء والأصفياء، إلى بيان فضلهم وشرفهم وتقدّمهم بين الأنبياء والأصفياء عليهم الصلاة والسلام؟!

٦- تحريم الإسلام السخريةَ بالمقدسات عند غير المسلمين: قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٨).

ففي هذه الآية ينهى الله تعالى المسلمين عن شتم آلهة الوثنيين؛ لأنه شرٌّ لا خير فيه، فلا السبّ بالذي سيدعوهم إلى الإسلام، بل سينفّرهم منه، ولا هو بالذي سيجرّ إلى تعظيم الله تعالى، بل سيجر إلى أن يسب المشركون الله ﷻ.

ومن لطائف بلاغة هذه الآية، أنها راعت أدبَها الذي تدعو إليه في لفظها نفسه؛ فمع أن الأصنام حجارةٌ لا تعقل، ومع أن اسم الموصول "الذين" خاص بالعاقل، مع ذلك لم تأت الآية معبّرة عن الأصنام باسم الموصول "ما" الذي لغير العاقل، فلم يقل الله تعالى "وَلَا تَسُبُّوا مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ"، وإنما قال تعالى ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، مراعاةً لاعتقاد الكفار في الأصنام وأنها عندهم آلهةٌ تعقل! وهذا غاية في الأدب واللطف وفي الموادعة. ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

hiragate.com

أ.د. فؤاد البنا*

مثلث صناعة النصر

١ النصر صناعة متكاملة، وهو يحتاج إلى الكثير من الشروط والخبرات والعلوم والأخلاق والأدوات والأساليب، مع مزج سائر العناصر والكفايات والطاقات في منظومة متكاملة. وتحتاج صناعة النصر إلى ثلاث مراحل رئيسية على النحو الآتي:

١- التخطيط العلمي الممتاز

والتخطيط لكي يكون علميًّا ينبغي أن يقوم بالآتي:

أ- تحديد الغاية المقصودة بدقة وبحيث يمكن إنجازها في الواقع، بعيدًا عن الأماني والخيالات.

ب- صياغة الأهداف الكبرى والمرحلية بطريقة إجرائية يمكن تحقيقها، بعيدًا عن الشعارات والعواطف والاتكاء على عالم الغيب.

جـ- معرفة الإمكانات الموجودة بشريًّا وماديًّا بدون تهويل أو تهوين، وبحيث تكون متناسبة مع حجم الغاية، وقادرة على تحقيق الأهداف المرحلية.

د- الاعتماد في الأساس على الذات وعدم التعويل على أي طاقة خارج المنظومة الذاتية، بحيث لا يؤدي الخذلان أو المتغيرات غير المحسوبة إلى نكبة كبرى.

وهذا يتطلب حشد كل الطاقات والقدرات الممكنة والكامنة، والتي يمكن أن تساهم في صناعة النصر.

هـ- معرفة العدو كما هو والتأهب له بما يستحق، بعيدًا عن التضخيم أو التحجيم؛ لأننا إن فعلنا ذلك فلن نخدع إلا أنفسنا، وستصبح المعلومات المغلوطة قنابل موقوتة تنفجر في الوقت الذي لا نتوقعه.

و- تحديد العقبات بدقة ووضع التكتيكات اللازمة للتغلب عليها، مع الحذر من ظهور عقبات أخرى غير محسوبة، وإيجاد بدائل مناسبة للتطورات.

ز- امتلاك زمام المبادرة، بحيث نصنع الفعل المراد في الزمان والمكان المناسبين، وبحيث تظل أنشطة العدو ردود أفعال، مما يحرمه المبادأة والمبادرة، فتضعف معنوياته وتتخلخل صفوفه وتتراجع فعاليته.

٢- التنفيذ

وتتطلب هذه المرحلة عددًا من الشروط:

• القيادة الكاريزمية التي تمتلك صفات آسرة، تجذب صناع النصر مهما كانت مشاربهم الفكرية واتجاهاتهم

لا يعني وجود قائد كاريزمي أنه سيتفرد بقيادة دفة سفينة النصر، فالربان الماهر لا يستغني عن أصحاب الخبرة والدراية، ولا يمكن لتدبير الفرد أن ينتصر على تدبير الجماعة، إذ سيمثل التدبير الفردي قوة الفرد مهما كانت قدراته ومواهبه.

السياسية وانتماءاتهم العرقية والمذهبية، وبحيث تكون هذه القيادة مقنعة في بيانها، وَحْدَوية في رؤيتها، ماهرة في تخطيطها، مرنة في سياساتها، صارمة في قراراتها التي تنضج تحت نار الشورى.

• الحس الجمعي: فلا يعني وجود قائد كاريزمي أنه سيتفرد بقيادة دفة سفينة النصر، فالربان الماهر لا يستغني عن أصحاب الخبرة والدراية، ولا يمكن لتدبير الفرد أن ينتصر على تدبير الجماعة، إذ سيمثل التدبير الفردي قوة الفرد مهما كانت قدراته ومواهبه.

ولقد كان هذا الأمر أحد عوامل حسم كثير من المعارك لصالح المسلمين في عهود الضياء والرشد.

• وضع الكفايات البشرية في أماكنها الضرورية لكسب الرهان، بعيدًا عن المعايير العاطفية أو المناطقية أو القبلية أو الحزبية.

• إعلاء الحس العملي عند جميع صناع النصر، وإدراك أن الميدان يحتاج أفعالاً لا أقوالاً، وأنشطة لا شعارات. وهذا يحتاج قدرًا كبيرًا من الإعداد النفسي والجسمي، بجانب الانضباط وحس المسؤولية وطاعة القيادة التراتبية.

• تقوية الإيمان بالله بحيث يكون تذكره لله ﷻ زادًا، وتصير الرغبة بما عند الله حافزًا للبطولة والتضحية، مما يقوي من إرادة الفرد، ويرفع من فاعليته إلى أبعد مدى ممكن.

• استخدام كافة الوسائل التي تساهم في صناعة الانتصار وتجنب الانكسار.

ويدخل ذلك ضمن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)، وكلمة "قوة" جاءت نكرة لتشمل كل وسيلة يمكن أن تقوي القلوب والسواعد، وتقوي الهجوم وتنكأ في العدو.

ولا شك أن الإعلام، من أهم الوسائل الأشد فتكًا في هذا الزمن إذا استثمرت إمكاناته بطريقة علمية، سواء كنا في حرب باردة أو حرب عسكرية.

٣- المراجعة والنقد الذاتي

مهما كان التخطيط ذكيًا والتنفيذ عبقريًا، فإن البشرية ستنعكس على أداء الجميع، ولا سيما أن هؤلاء يعملون في وسط اجتماعي مليء بالخطايا والموبقات التي لا بد أن تنعكس سلبًا على صناع النصر.

ولهذا لا بد من وجود مجموعة من أصحاب الكفاية والخبرة، لمتابعة الرؤى والخطط ومراقبة الأداء، حتى يقيمونه ثم يقومونه ليصبح أعلى كفاءة وأهدى سبيلاً.

وتحتاج هذه المهمة الرقابية إلى كوادر تتسم بعدد من الخلال أهمها:

• الوعي العام بالواقع، وإتقان فقه مقاصد الشريعة الإسلامية، حتى يقيس أفعال الجميع بالمصلحة العامة.

• الشجاعة والموضوعية، حتى لا يخشى أحدًا ولا يستحي من أحد ولا يحابي أحدًا، ولا يميل مع العواطف أو تستهويه العصبيات.

• الحكمة، حتى يعرف كيف يعالج الأخطاء التي لا تحتاج إلى تدخل القيادة، ويقوّم الاعوجاجات بما يدرأ المفاسد أولاً ثم يحقق المصالح.

للمراجعة والنقد الذاتي، عدد من المهمات الصعبة التي تتطلب أن يكون أصحابها مستقلين عن القيادة التنفيذية، والمطلوب من هؤلاء كشروط لتحقيق النصر التأكد مما يأتي:

أ- وجود جسور الوصل بين الأفكار التي ينتمي إليها جسم النصر وأفعال حامليها، بحيث لا تصبح الأفعال حجة على الأفكار.

ب- الانسجام بين القيادات والقواعد، بحيث يتحقق الانضباط ويختفي الترهل وتنعدم الجيوب التي قد تصير مع الزمن أورامًا سرطانية.

جـ- الانسياب بين كافة الجهات والجبهات، بحيث لا يخرب البعض ما يبنيه البعض الآخر، وبحيث لا يغرد أحد خارج السرب، وتصب كافة الطاقات البشرية

والمادية في مجرى تحقيق الأهداف الموصلة إلى إنجاز النصر المنشود.

د- التناسب بين مدخلات صناع النصر والمخرجات، بما يكفل التوصل إلى أوجه القصور والتقصير الخفية والبحث عن أنجع الأساليب والوسائل التي ترفع من فاعلية الأفراد، حتى يتحقق النصر بكفاءة أعلى وثمن أقل وزمن أقصر.

هـ- الخلو من الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها العدو وأهمها الفجوات التي تصنعها العصبيات المختلفة.

و- التزام القيادة بالشورى الحقيقية التي تستخرج الخبرات بحق، وليست الشكلية التي تسقط الواجب، وقيامها بكافة واجباتها المنوطة بها على أكمل وجه.

ولما كانت القيادة الجماعية من أهم شروط النصر، فينبغي أن يساهم في قيادة السفينة نحو شواطئ النصر وضفاف التمكين، قادة هذه الأضلاع الثلاثة: التخطيط والتنفيذ والتقويم.

وحتى لا يكون هؤلاء القادة شركاء متشاكسين، ينبغي أن ينتخب جميعهم من أهل الوعي الذي يذيب الخلافات ويوسع الرؤية، ومن أصحاب الإخلاص الذي يلغي الشخصانية ويخلق التجرد.

وبجانب ذلك لا بد من جهة قضائية تفصل بين المتنازعين إن حدث التنازع.

ولن يتحقق هذا المستوى المثالي من التكامل والانسياب، ما لم تكن قيمتا الحرية والعدالة حاضرتين بقوة داخل مكونات الجسم الساعي لجلب النصر.

فبقيمتي الحرية والعدالة يسهل استمطار سحائب المدد الرحماني، بل ويتم ضمان أن غيث النصر لن يتحول إلى سيول عاتية وطوفان جارف، كما حدث لكثير من المجتمعات التي انتصرت على عدوها، لكنها انهزمت أمام عصبياتها الضيقة وحساباتها الأنانية، فوقعت في مستنقع الاحتراب الأهلي، وضاع النصر تحت أقدام المتحاربين، وتبخرت مياه نفعه تحت أشعة الصراع المحموم بين الأخوة الأصدقاء. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي، جامعة تعز / اليمن.

أنيسُ مَن لا أنيس له

الوحدةُ تثبّطك،
والشيخوخةُ تُقعِدك،
والغربةُ تُوحِشك..
والحمائم البيض عليك تحوم قائلة:
"لا تتعلَّلْ!
وبهذه المعاذير لا تعتذر..
فبالله استعنْ، وعليه توكّل..
فإنك بهمّة الإيمان،
تُزلزل الجبال، وتجتاز العقبات،
وتَهزم كُلَّ المثبّطات".

* * *

ناجي العتريس*

سيادة البحار

قصة الأساطيل الإسلامية قصة شائقة وممتعة، تشعرنا بالفخر، وتذكرنا بالأمجاد، وتثبت أنه بالإرادة القوية والعزيمة تتذلل العقبات والأهوال. فلم يكن للمسلمين أسطول قبل عهد عثمان بن عفان ﷺ الذي يُعد أول حاكم مسلم يهتم بصناعة الأساطيل. والعجيب أن عمر بن الخطاب ﷺ الفاتح العظيم والشجاع الكبير، لم يحب ركوب البحر، ولم يشجع عليه؛ فقد ألحَّ عليه معاوية بن أبي سفيان ﷺ حينما كان واليًا على الشام، أن يأمر بركوب البحر وغزو الروم في حمص، إلا أن عمر بن الخطاب ﷺ أبى وأقسم بالله الذي بعث محمدًا بالحق أن لا يحمل فيه مسلمًا أبدًا. وفي عهد "عثمان" ﷺ كرر "معاوية" ﷺ الإلحاح في طلبه بركوب البحر، حتى استجيب لطلبه، حيث وجه الخليفة إليه الأمر ومعه عبد الله بن أبي السرح ﷺ بالتعاون لتوفير كل الإمكانات اللازمة لبناء أسطول

بحري إسلامي، لصدِّ هجمات الروم على سواحل مصر والشام لتأمين حدود الدولة الإسلامية برًّا وبحرًا. وقد صدَّ هذا الأسطول هجمات الروم ومنها موقعة "ذات الصواري" عام ٣٤ هجريًّا، التي جمع الروم فيها جيشًا بلغ عدد سفنه خمسمائة سفينة لمحاربة المسلمين؛ فأمر معاوية ﷺ قائدَه عبد الله بن أبي السرح بالتوجه إليهم، فالتقى بهم في عرض البحر، ودارت بينهم معركة عظيمة هُزم فيها الروم ودُمر أسطولهم وقُتل منهم الآلاف، وتأمنت حدود الدولة الإسلامية بهذا الانتصار، وحببهم في ركوب البحر، وأوحت لهم بفكرة بناء أسطول كبير تكون له السيادة على البحر المتوسط. وقد استحالت الإسكندرية إلى دار عظيمة لصناعة السفن، واستُخدِم فيها العمال المصريون ممن أتقنوا الصنعة على أيدي الروم، وأخذت السفن الإسلامية أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص ﷺ في واقعة الإسكندرية، وأبلى المسلمون بلاءً حسنًا، وأثبتوا أنهم في البحر -كما في البر- قوة وعزيمة وحب في نصر دين الله.

ويُعدُّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ أول خائض غمرات البحار. ويبرز اسم عبد الله بن قيس الفرازي في هذا المضمار، فقد استعمل أميرًا على البحار، وغزا أكثر من خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة.

وكلمة أسطول ليست عربية الأصل، ولكنها يونانية معرّبة، ولا أحد يعرف بالتحديد الوقت الذي استُعملت فيه تلك اللفظة، ولا أول من استعملها، ولكن الشواهد تشير إلى أن الكلمة اليونانية دخلت إلى اللغة العربية بعد اتصال العرب بالروم، واستعملت في كتب المؤرخين المسلمين، وزاد استعمالها عند المتأخرين منهم.. وذكرها المقريزي في مواضع كثيرة من كتابه "الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل"، وورد ذكرها كثيرًا في تاريخ ابن خلدون في عدة مواضع. وقد تغنى شعراء العرب والمسلمين بالسفن، وتفننوا في وصف الأسطول، وبلغوا في ذلك شأوًا بعيدًا، لا سيما شعراء الأندلس والمغرب منهم، واستعملها ابن هانئ الأندلسي شاعرُ المعز لدين الله الفاطمي وواصف أساطيله. وورد وصفها أيضًا في مدائح أبي نواس للخليفة الأمين بن الرشيد، وقال البحتري:

يسوقون أسطولاً كأن سفينه
سحائب صيف من جهام وممطر

وتعتبر قصيدة علي بن محمد الأيادي التونسي، من غرر القصائد في وصف الأساطيل ومطلعها:

أعجب لأسطولِ الإمام محمدٍ
ولحسنهِ وزمانـــــهِ المستغرب
لبست به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ
يبدو لعينِ الناظرِ المستعجب

وفي عهد بني أمية، بعث عبد الملك بن مروان إلى عامله على إفريقيا حسان بن النعمان يأمره بإنشاء دار لصناعة الأساطيل في تونس على غرار ما حدث في مصر. ثم يأتي عبيد الله بن الحبحاب واليًا على إفريقيا سنة ١١٤ هجريًّا، فيوسع دار الصناعة التي أنشأها حسان بتونس ويغزو صقلية سنة ١٢٢ هجريًّا. ولم يهتم خلفاء بني العباس بهذه الصناعة إلا حين نزل الروم إلى دمياط المصرية؛ فقد كان "المتوكل" خليفة و"عنبسة بن إسحاق" واليًا على مصر، وكان الروم واقفين للمسلمين بالمرصاد، فانتهزوا يوم عرفات سنة ٢٣٨ هجريًّا وغزوا دمياط، وقتلوا وسبوا عددًا من المسلمين. فاهتم "المتوكل" بصناعة الأساطيل التي كانت قد أصابها الإهمال زمنًا.

ويعد هذا أول انتعاش للبحرية الإسلامية، فقد وضعت قوانين للبحارة، ورتبت لهم الأرزاق، وانتخب

لهم القواد العارفون بالمحاربة، وتنحى عنها الجهلاء الجبناء، وأصبح الشرف الأسمى أن ينتسب المرء إلى الأسطول الذي كان لرجاله مكانة مميزة. وكانت الإسكندرية وتونس قاعدتين مهمتين من قواعد الأسطول الإسلامي، تخرج منهما السفن للغزو، وتُوقِع بملوك الإفرنج، وتثخن ممالكهم كما يقول ابن خلدون.

ويروي المقريزي في خططه أن أساطيل الإسلام كانت كثيرة الهجوم على بلاد العدو، وكانت تسير من مصر ومن الشام ومن إفريقيا. وتفوَّق الأسطول الشامي -في القرن الرابع الهجري- على الأسطول الفاطمي في شمال إفريقيا في الكفاية والعدد. وعلى الرغم من أن الأسطول الفاطمي غزا جنوبي فرنسا ومدينتي "جنوه" و"بيزا"، فإن الأسطول الشامي استطاع هزيمة الأسطول المصري، فانهزمت ثمانون سفينة فاطمية أمام خمس وعشرين سفينة شامية في سنة ٣٠١ هجريًّا. وعلى كل حال، لا يُنسى فضل الفاطميين على الأسطول المصري وعنايتهم به؛ فلقد واصلوا إنشاء المراكب بالقاهرة والإسكندرية ودمياط، وسيّروها إلى بلد الساحل مثل صُور، وعكا، وعسقلان، وأكثروا من بناء دور لصناعة الأساطيل.

وكانت الأساطيل الإسلامية -كغيرها من الأساطيل حينذاك- تسير بالشراع والمجاديف، ولا يدخل الحديد في بنائها. وكانت البندقية تمدّ المسلمين بالخشب اللازم لهياكل السفن وصواريها، ولكن الإمبراطور الروماني احتج على دوق البندقية فتوقف "البنادقة" عن بيع الخشب الصالح لصناعة السفن للمسلمين، مما أثر في الإنتاج البحري عند المسلمين. وزاد الأمر سوءًا ذلك الحريق الهائل الذي وقع في أسطول الفاطميين في زمن العزيز الفاطمي، واعترف صناع الروم بأنهم هم الذين أحدثوه. وحدثت أزمة في صناعة الأساطيل ظهر أثرها فيما صنعه الوزير عيسى بن نسطورس في مصر من خشب السقائف ودور الحكومة لإعداد أسطول آخر.

ولقد فطن صلاح الدين الأيوبي إلى أهمية الغابات في صناعة الأساطيل، فراقبها مراقبة دقيقة، وعيَّن الحراسَ عليها حتى لا يستعمل الناس خشبها في شؤونهم الخاصة، واستنبت نوعًا من شجر السنط، وبلغ عدد الأسطول الإسلامي شأنًا عظيمًا في عهده. وكان المسلمون في حاجة مُلحة إليها؛ لاستيلاء الصليبيين على أكثر السواحل الشامية، وبلغت السفن حدًّا عظيمًا من ضخامة الهيكل وارتفاع الجُدر في ذلك العصر. ويذكر المؤرخ الإنجليزي "جون كارنوك" أن "قلب الأسد" ملك إنجلترا، لما استولى على قبرص وغادرها إلى الشام في مائتي سفينة، لاقى في طريقه سفينة ضخمة للمسلمين تحمل ألفًا وخمسمائة بحار -وهو عدد لم يشهد الفرنجة مثله في زمانهم- وهذا يدل على مبلغ ما وصلت إليه صناعة الأساطيل الإسلامية من تقدم. وبعد عصر صلاح الدين، قلّت العناية بالأسطول إلى أن جاء الملك "الظاهر" في منتصف القرن السابع، فاهتم بصناعة السفن وأشرف عليها بنفسه، حتى استرد بعضًا من القوة في هذه الصناعة، إلا أنها لم تبلغ ما كانت عليه في عصور التوسع والفتح. وقد غزا "ابن حسون المصري" قبرص في القرن السابع، واستخدم المكر والدهاء الحربي، حيث كان يرفع على مراكبه الصُلبان فيظنها العدو من سفنهم فتدخل الحيلة عليهم، وهو بذلك يتخذ شعار الحرب خدعة، منهجًا له.

بعد هذا المرور السريع على قصة الأساطيل الإسلامية، نأمل أن تعود أمجادنا في هذه الصناعة إلى سابق عهدها، متخذين من العلم والتكنولوجيا سبيلاً لتقدمها ورفعتها. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. رضا عبد الحكيم رضوان*

النحل
أشهر وسطاء التلقيح

من أجل المحافظة وتفعيل اخضرار الأرض وجّه ﷻ -فطريًّا- مخلوقاته الصغيرة وفي مقدمتها النحل، لتسكن الأشجار والبساتين، وألزمها ﷻ أن تتنقل بين جميع النباتات، متخذة من ثمراتها منهل إطعامها. والعلم الحديث يكشف لنا عن إعجاز علمي في تعليل خطاب الرحمن الموجَّه خصيصًا إلى النحل، أن يرتاد عالم النبات سكنًا وطعامًا. فمن حقائق العلم المعاصر، ما تلعبه هذه الدابة الطائرة الصغيرة من دور رئيس كوسيط في نقل حبوب اللقاح بين النبات في البراري والزراعات. من الحقائق العلمية أنه بتوقف تلقيح النباتات، يتوقف بالمقابل تكاثرها. وتمثل الزهرة العضو المسؤول عن عملية التكاثر في النباتات، فهي تعمل على دمج حبوب اللقاح المذكرة مع البويضة المؤنثة من أجل إنتاج البذور. وحبوب اللقاح تأخذ شكل بذرة داخل الزهرة، وعادة تتجمع داخل جيب يسميه العلماء "سلة اللقاح". محتويات هذه السلة هي أساس

إن نحل العسل الأوروبي قد تم جلبه إلى الولايات المتحدة منذ أربعة قرون، ويقوم مربّو النحل بتأجيره إلى المزارع الكبيرة ليلقح محاصيلها.

تكاثر النبات، ذلك أن اللقاح بمثابة السائل المنوي لدى النباتات لنشر جيناتها.

وتتكون حبوب اللقاح من الماء، السكريات، الدهون، البروتينات -وبها نسبة كبيرة من الأحماض الأمينية- الفيتامينات، والمعادن، مثل الكالسيوم، والكلور، والمغنزيوم. تحتوي حبوب اللقاح على عدد كبير من الأنزيمات والخمائر، وأيضًا على بعض العناصر الأخرى، مثل مادة الروبين التي تدخل في تركيب الشعيرات الدموية وتزيد من قوة التصاق خلاياها بعضها ببعض. والتلقيح في النبات هو انتقال حب الطلع (Pol-len) من السداة (Etamine) إلى المدقة (Pistil)، أو من المآبر الذكرية (Antheres) إلى المياسم الأنثوية (İgmates) بطرق تختلف باختلاف الأنواع النباتية.

إستراتيجيات التلقيح

والتلقيح قد يكون ذاتيًّا بانتقال حبوب اللقاح من متوك زهرة إلى مياسم نفس الزهرة، أو إلى ميسم زهرة أخرى ضمن النبات نفسه. ويتم ذلك بانطباق السداة المتفتحة مباشرة على الميسم، أو بواسطة الريح فيما يسمى بـ"التلقيح الهوائي"، ويجري هذا التلقيح غالبًا في النباتات التي تنتج كميات كبيرة من حب الطلع الخفيف الوزن، الأملس، والمزود بأكياس هوائية تضمن حملة بالهواء مسافات بعيدة. والماء يعد وسيطًا في نقل حبوب الأزهار أليفة الماء (Hydrophiles)، حيث تتحرك الحبوب مع التيارات المائية لتصل إلى مياسم الأزهار.

وهناك طريقة أخرى للتلقيح من خلال وسيط يتمثل في حشرات وحيوانات، فهي آليات طبيعية تؤدي دورها الحيوي في نقل حبوب اللقاح. وقد ألهم أولئك الوسطاء الخبراء لابتداع وتطوير أساليب متقدمة للتلقيح بالحشرات. وقد أظهر تقرير حديث مساهمة الملقحات -خصوصًا النحل- في نمو نباتات العالم، حيث بلغت قيمة التلقيح بالحشرات في العام ٢٠١٤م أكثر من ٢٠٠ مليار دولار أمريكي في كافة أنحاء العالم.

أشهر وسطاء التلقيح

من أجل التكاثر، تعتمد معظم النباتات المزهرة على طرف ثالث لنقل حبوب اللقاح بين جُزءَيْها الذكري والأنثوي. وبعضها يتطلب تحفيزًا إضافيًّا للإسراع بهذه العملية. وعلى سبيل المثال، تحتاج زهرة الطماطم إلى رجّة عنيفة يعادل اهتزازها تقريبًا ٣٠ مرة قوة الجذب لدى جاذبية الأرض. وقد جرّب المزارعون العديد من الطرق من أجل رجّ حبوب اللقاح من أزهار الطماطم، وذلك باستخدام الطاولات المهتزة، ونافخات الهواء، والمفجرات الصوتية، والهزازات التي تتطلب جهدًا كبيرًا من أجل وضعها باليد على كل مجموعة من الأزهار، لكن الأداة المفضلة في البيوت الزجاجية حاليًّا -كما دلت التجربة- هي النحلة الطنانة؛ فهي تنقضّ على زهرة الطماطم وتبدأ بهَزِّها بشراسة وهي تتغذى، لتطلق سحابة فاترة من حبوب اللقاح تلامس ميسم النبتة (الطرف السائب من الجزء الأنثوي الذي تلتصق به حبوب اللقاح)، وتلتصق أيضًا بجسم النحلة الأزغب، ثم تنقل النحلة ذلك الهباء إلى الزهرة التالية فيما يسمى بـ"التلقيح الطنان" الذي يعتبر مفعوله كالسحر.

هناك أكثر من ٢٠٠ ألف نوع من مملكة الحيوان يقوم بدور الوسيط في نقل حبوب اللقاح في عالم النبات باستخدام إستراتيجيات مختلفة من أجل مساعدة الزهور في إنتاج المزيد من الزهور؛ ويعتبر الذباب والخنافس ملقحات أصلية، حيث يعود تاريخها إلى فجر ظهور النباتات منذ ملايين السنين.

أما بالنسبة للنحل، فقد قام العلماء بتحديد ما يقرب

٢٠ ألف جنس مختلف منه حتى الآن، يعمل نحو خمسة على تلقيح الزهور في الولايات المتحدة. وإلى جوار النحل يباشر أعمال الوساطة في التلقيح الطيور الطنانة، والفراشات، والعثات، والدبابير، والنمل.. فجميعها لديها الكفاءة في إنجاز المهام. وينضم إلى قافلة تلك الوسطاء، الحلزونات، والرخويات، حيث تخلف وراءها حبوب اللقاح وهي تزحف على مجموعات الزهور. ويحمل البعوض حبوب اللقاح لبقاع من البساتين، كما تقوم الخنافس من خلال خطوم وألسنة متنوعة تم تكييفها لتلقيح أزهار ذات أشكال مختلفة، بنقل حبوب اللقاح إلى ٣٦٠ نوعًا من النباتات الأمريكية وحدها.

الأبوسوم حيوان من الثدييات ذات الفراء، يملك أياد رشيقة يستخدمها في تمزيق سيقان أزهار النباتات وفتح أغشية الفرو التي تلتصق بها حبوب اللقاح.

التلقيح في البرية

وللثدييات -رغم عدم قدرتها على الطيران- دورها في عملية التلقيح.. فالأبوسوم، المحب للسكر، حيوان من الثدييات ذات الفراء يعيش في نصف الكرة الغربي، وبعض قردة الغابات المطيرة، وحيوان الليمور في جزيرة مدغشقر، كلها تتوفر على أياد رشيقة تستخدمها في تمزيق سيقان أزهار النباتات وفتح أغشية الفرو التي تلتصق بها حبوب اللقاح. وقد لوحظ أن السحالي -مثل الوزع والسقنقور- تلعق الرحيق وحبوب اللقاح، ومن ثم تنقل اللقاح الذي يبقى ملتصقًا بوجهها أثناء رحلتها في الرعي بحثًا عن الغذاء.

في جزيرة بارو كلورادو البنمية، ينهض فريق من الملقحين بمهامه في تلقيح الأشجار هناك، ولعل أبرزها شجرة أكروما الهرمية (Ochroma Pyramidate) وتسمى أيضًا "البلزا" والتي تعرف بفائدتها كمصدر عالمي رئيس للخشب خفيف الوزن، ومن خصائصها أنها تعيش ما بين ٣٠ و٤٠ سنة. في عالم النبات مثل شجرة البلزا، تتفتح أزهارها في الليل فقط، ومن هنا يختلف ضيوفها عن ضيوف النبات المزهر نهارًا، وزواره من الطيور والنحل والفراشات والخنافس، فيما تستضيف النباتات المزهرة ليلاً العثث والصراصير والجنادب، إضافة إلى الثدييات الصغيرة.

فبحسب النتائج التي توصل إليها الباحثون بمعهد سيمثسونيان للأبحاث الاستوائية، أن قردة الكباشين (Capuchins)، والقردة المقلنسة -وهي من النوع الشهير بالدهاء وسعة الحيلة مثل الشامبانزي الإفريقي- تؤدي دور وسيط التلقيح لأزهار أعالي هذه الشجرة التي يبلغ ارتفاعها ٣٠ مترًا، والشجرة تحمل بمئات الأزهار من مراحل ينعان مختلفة. فهناك براعم بنية اللون تبدو مثل عيدان عملاقة لتنظيف الأذن، وأزهار حلزونية الشكل غير متفتحة لها رؤوس قشدية كمخروط مثلجات الفانيلا، ثم الأزهار الناضجة التي تتفتح ليلاً، وذلك ببسط بتلاتها الخمس اللحيمة لتكشف عن سداة (العضو الذكري في الزهرة) مغطاة بحبوب لقاح يحفها حوض بعمق سنتيمتر يحوي رحيقًا مغذيًا ذات حلاوة شديدة. كل هذه الأزهار والبتلات تتفتح ليلاً، ويزداد تفتحها مع مرور وقت الليل أوسع فأوسع كلما خيمت الظلمة على الأجواء.

عُرف عن القردة أنها تصعد إلى شجرة البلزا مع الغروب وذلك في جماعات، حيث تقوم القرود بغرز رؤوسها داخل الأزهار اليافعة والتهام رحيقها، وعندما تُخرج وجوهَها من الأزهار تكون خطومها ملطخة بحبوب اللقاح، هذه الخطوم هي الوسيط الناقل للقاح إلى الأجزاء الأنثوية في أزهار شجرة بلزا أخرى.

وشجرة البلزا، عُرف عنها سخاؤها؛ فهي تنتج في الليلة الواحدة حوالي لتر واحد -أو أكثر- من رحيقها المميز وهو مزيج من السكريات والمركبات العطرية،

إن السقنقور من السحالي تلعق الرحيق وحبوب اللقاح، وتنقل اللقاح الذي يبقى ملتصقًا بوجهها أثناء رحلتها في الرعي بحثًا عن الغذاء.

إن قردة الكباشين تؤدي دور وسيط التلقيح لأزهار أعالي شجرة البلزا التي تحمل بمئات الأزهار من مراحل ينعان مختلفة.

فما أن ينضب رحيق إلا وتسارع بإفراز غيره، وكأنها على علم بقدوم مخلوقات أخرى تالية للقردة، فالشجرة تعيد على الفور ملء الأزهار الجافة برحيق طازج، وتدفع أخرى جديدة لتتفتح.. إنها مهمة تحرص عليها الشجرة من الغسق إلى بزوغ الفجر؛ ذلك أن زائريها غير متوقفين ليلاً من مختلف الأنواع والأجناس الثدييات، الطيور، البرمائيات، والحشرات.

رصد العلماء حيوانات شتى تزور الشجرة، منها ما يشبه الأبوسوم الأمريكي، وهو حيوان من ذوات الجراب والكنكاج، وحيوان الأولينغو الشبيه بالراكون ملك الانزلاق عبر الأغصان وهو من ذوات الأرجل الأربعة. وأولئك الملقحون يمتلكون فروًا عسليًّا لامعًا ينسجم ولحاء الأشجار، وذيلاً طويلاً، وعينين كبيرتين أماميتين للتحدي البصري الذي يشكله الإبحار عبر الأشجار في ظلمة الليل.

تربية الملقحات

نعلم أن نحل العسل الأوروبي قد تم جلبه إلى الولايات المتحدة منذ أربعة قرون، ومنذ خمسينيات القرن العشرين والمناحل تنتشر على طول البلاد، حيث يقوم مربّو النحل بتأجيره إلى المزارع الكبيرة ليلقح محاصيلها. هذا وتضم مستعمرة النحل أفرادًا تبلغ قرابة الثلاثين ألف نحلة أو أكثر في الخلية الواحدة، حيث يرعى القطيع على امتداد مسافات طويلة. وقد تعلّم المزارعون أن هذا النحل يسهل تحريكه وتوجيهه على نحو أفضل من معظم الحشرات، وهو نحل لا يلسع ويصلح لتلقيح أي محصول تقريبًا.

ومما يثير القلق، معاناة النحل من الأمراض، وأخطرها ما سجل في الأعوام ما بين ٢٠٠٦-٢٠١٠ من انتشار مرض انهيار خلية النحل المعروف بـ"اضطراب انهيار المستعمرة". وقد توصل الباحثون إلى أن التغذية غير الكافية وتعرّض النحل للكيميائيات، يمكن أن يؤديا إلى أضعاف المناعة لدى النحلة قبل أن تنقضّ الفيروسات للفتك بها. كما يمكن لمبيدات الفطريات أن تكون مصدرًا للتسمم، إذ يمكن أن تتداخل مع الجراثيم التي تعمل على تفتيت حبوب اللقاح في أحشاء الحشرات، ما يؤثر على امتصاص العناصر الغذائية وبالتالي صحة النحلة في المدى البعيد وأمد حياتها.

وكما يتعرض النحل المربي إلى الإصابة بهذه الآفة فكذلك الملقحات البرية، مما دعا العلماء إلى البحث عن حلول مثل الحد من الاعتماد على المواد الكيميائية في الزراعة، والتشجيع على زراعة النباتات في المناطق المجاورة للأراضي الزراعية، فتوفير ملاذات للأزهار البرية الخالية من المبيدات الحشرية من شأنها دعم جماعات من الحشرات النافعة مثل نحل البساتين الأزرق، وهو ملقح فعال للغاية لبعض المحاصيل مثل محاصيل اللوز. وأيضًا النحل شديد الطنين المقاوم للطقس البارد والرطب. ■

(*) أكاديمي وباحث مصري.

د. خالد حربي*

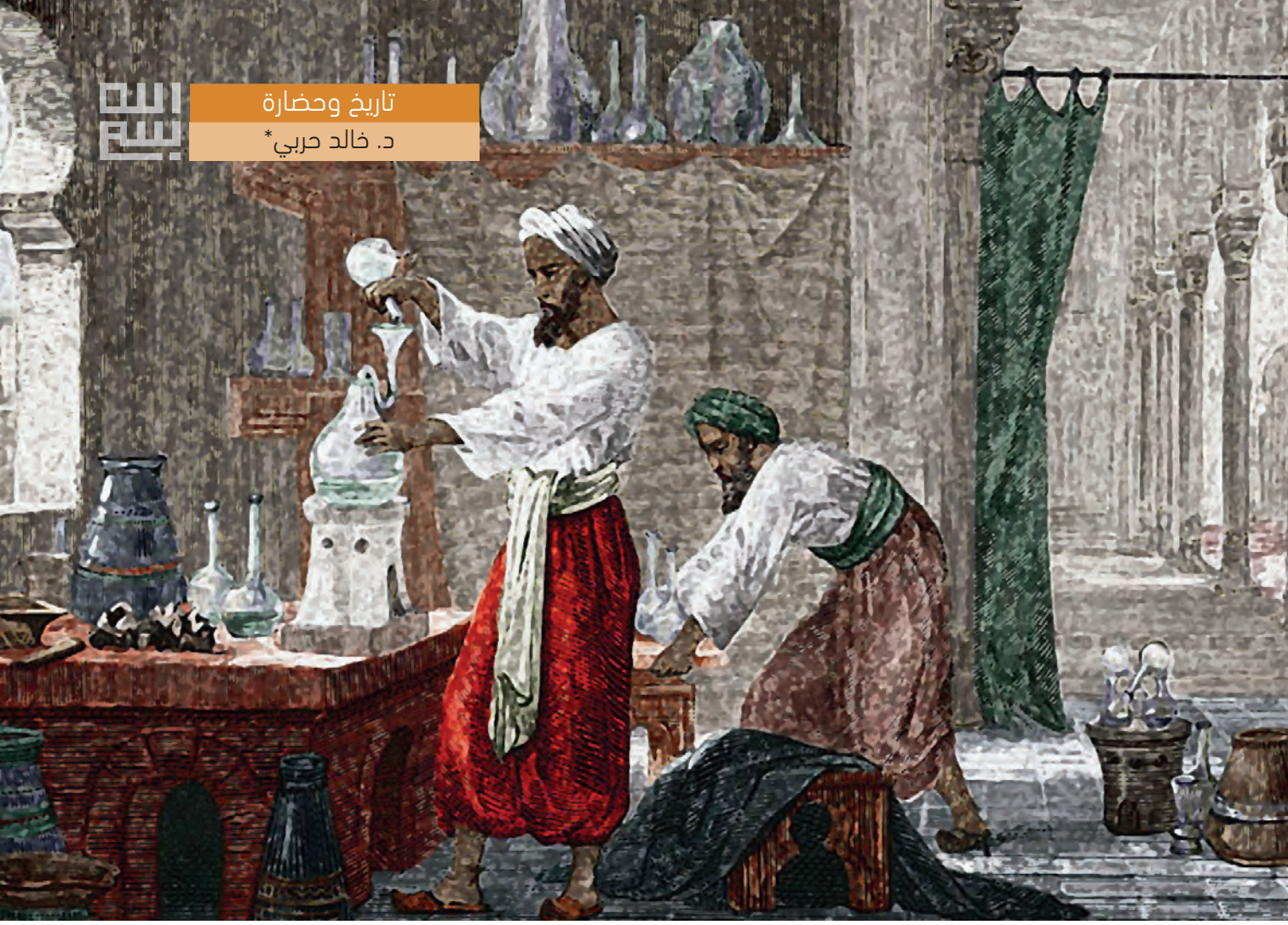

جابر بن حيان

مؤسس علم الكيمياء

يُعد جابر بن حيان الأزدي (١٢٣-١٨٤هـ/٧٤٠-٨٠٠م) الرائد الأول لعلم الكيمياء وشيخ الكيميائيين المسلمين، اطلع ودرس محاولات من سبقوه من الكيميائيين -وخاصة خالد بن يزيد بن معاوية، وجعفر الصادق- إلى جانب اطلاعه على تراث الأمم الأخرى في الكيمياء الذي ترجم إلى اللغة العربية. وبدأت انطلاقة جابر بعد دراسة وتمحيص الدراسات الكيميائية السابقة عليه ونقدها، وخاصة الفكر اليوناني الذي اعتمد جابر على أحد نظرياته وهي نظرية الطبائع الأربع الأولية التي نشأت بمقتضاها الكائنات جميعًا، وفكرة تحويل المعادن.. لكنه سينتهي إلى نتائج علمية تختلف بالنوع والكيف عن الفكر اليوناني، حيث أسهم جابر في بناء المنهج التجريبي في مقابل المنهج العقلي اليوناني. وبتطبيق هذا المنهج أرسى قواعد علم الكيمياء، ووصل به حدًّا جعل كل من أتوا بعده تلاميذ في مدرسته الكيميائية التي أسسها وامتد أثرها إلى العصر الحديث.

نشأ جابر بن حيان في أسرة تشجع على العلم والبحث والدرس، حيث كان أبوه "حيّان" من المشتغلين بالعقاقير ويعمل صيدلانيًّا في الكوفة. ونشأ جابر في عصر كان يولي اهتمامًا كبيرًا بالترجمة عن الأمم الأخرى، ولا سيما اليونان القدماء. ولكن لم يكن جابر -كغيره من العلماء المسلمين- مجرد ناقل عن الذين ترجموا من اليونانية إلى العربية، لكنه بعد أن درس

العلم اليوناني واستوعبه ونقده، استطاع أن يضيف إليه من إبداعات عقله الإسلامي. ففي كتابه "إخراج ما في القوة إلى الفعل" عالج مفهوم القوة والفعل اليوناني من خلال إبداعاته الخاصة.

منهج علم الكيمياء

لقد استخدم علماء الحضارة الإسلامية في العلوم الطبيعية -ومنها الكيمياء- منهجًا علميًّا يقوم على استخراج علة الشيء أو سببه، وهو ما عُرف بـ"القياس الأصولي" القائم على قانون العلّيّة أو التعليل والاطراد في وقوع الحوادث. ويذهب جابر بن حيان -في كتاب الخواص الكبير- إلى أن العلة قبل المعلول بالذات ضرورة، ولا يمكن أن يكون ذات ما لا يكون لا علة ولا معلول.

وإذا كان جابر بن حيان قد اطلع على التراث العلمي اليوناني وتأثر به في بعض جوانب تفكيره، إلا أنه اتخذ التجربة سبيلاً إلى التثبت من صحة الآراء والنظريات اليونانية التي وقف على دراستها. وفي التمييز بين العقلية اليونانية والعقلية الإسلامية في البحث والدرس يقول "غوستاف لوبون": "إنك لا تجد عالمًا يونانيًّا استند في مباحثه إلى التجربة، مع أنك تعدّ مئات من العرب الذين قامت مباحثهم الكيميائية على التجربة، فجابر بن حيان أستاذ لافوازيه أبي الكمياء الحديثة.

ولم تكن تجريبية جابر مجرد معرفة بالخبرة، بل كانت عبارة ازدواج بين العقل والعمل -كما ينص المنهج التجريبي الحديث الذي صاغه علماء الغرب المحدثين- حيث يمر منهج العلم التجريبي أو الاستقرائي بمراحل ثلاث الأولى هي مرحلة البحث، والثانية هي مرحلة الكشف، والثالثة هي مرحلة البرهان. فالجانب العقلي يتمثل في المرحلة الثانية وهي مرحلة الكشف، ويتمثل الجانب التجريبي في المرحلتين الأولى والثالثة وهما البحث والبرهان. ويصرح جابر بأن منهجه العلمي التجريبي قد ضمه بصورة كلية في كتابه "الخواص".

وفي كتاب السبعين، يجعل جابر الدربة (التجربة) محكًّا للتمييز بين العالم وغير العالم. فالأول يصل بالتجربة إلى نتائج جديدة، والثاني يعطل البحث العلمي: فمن كان دربًا كان عالمًا حقًّا، ومن لم يكن دربًا لم يكن عالمًا. وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق، وغير الدرب يعطل.

وعلى صاحب التجربة -تبعًا لجابر- أن يعرف علة قيامه بالتجربة التي يجريها، وأن يفهم الإرشادات فهمًا جيدًا، ويجتذب المستحيل والعقيم.. ويجب عليه اختيار الزمن الملائم لإجراء التجربة، ويفضل أن يكون معمله في مكان معزول، وأن يكون لديه الوقت الكافي الذي يمكنه من إجراء تجاربه التي يجب أن يكون دؤوبًا عليها وصبورًا على نتائجها، وألاّ تخدعه الظواهر فيتسرع في الوصول إلى النتائج التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل.

وإذا كانت التجربة في التصور العلمي الحديث تُزوِّد العلم بالأساس المادي الذي يثبت وجهة نظر الباحث فيما سبق له أن لاحظه من الوقائع والمشاهدات، فإن جابرًا قد فطن إلى هذا المفهوم وطبقه بصورة فعلية. فمن نصوصه يمكن تلمس خطوات السير في طريق البحث العلمي، وهي خطوات تتطابق مع ما يتفق عليه معظم المشتغلين بالمنهج العلمي اليوم.

ولم يغفل جابر بن حيان دور الملاحظة أو المشاهدة الحسية تمامًا كما في المنهج العلمي الحديث؛ ففي المقالة الأولى من كتاب الخواص الكبير يقول: "ويجب أن تعلم أنّا نذكر في هذه الكتب، خواص ما رأينا فقط دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه بعد أن امتحنّاه وجربناه، فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه، واستخرجناه نحن وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم".

وينصح جابر بضرورة قراءة الكتب والتحصيل النظري قبل إجراء التجارب. ومع اعترافه بأن عملية الاطلاع على ما في الكتب النظرية تقتضى تعبًا وكدًّا، إلا أنها هي الخطوة الأساسية الأولى في البحث إذا أراد الباحث الوصول إلى الحقيقة بعد التجربة، حيث يقول: "اِتعبْ أولاً تعبًا واحدًا، واجمع وانظر واعلم، ثم اعمل، تصل إلى ما تريد".

يتضح مما سبق أن جابرًا بن حيان قد اتبع المنهج العلمي بأدق تفاصيله. وقد أدى به هذا إلى إحراز نتائج

hiragate.com

مهمة في تقدم علم الكيمياء. بيد أن التطور الذي حدث في مجال هذا العلم لم يكن في مجال المنهج فحسب، وإنما امتد ليشمل نسق المعرفة العلمية فيه على ما سيتضح فيما يلي:

حدود علم الصنعة

اشتغل جابر بما شغل كافة الكيميائيين والأطباء على مرّ العصور وهو صناعة الإكسير، وزعم أنه استحضره وعالج به أكثر من ألف مريض كما يقول في كتاب الخواص الكبير: "خلصت بالإكسير أكثر من ألف نفس، ومنهم جارية سيدي يحيى بن خالد التي أصابتها علة لم تقدر معها على النفس ولا الكلام البتة، ولما زاد الأمر سألني أن أراها، فرأيتها ميتة خاملة جدًّا، وكان معي من هذا الإكسير شيء فسقيتها منه وزن حبتين بسكنجبين صرف مقدار ثلاث أواق. فو الله لقد سترتُ وجهي عن هذه الجارية لأنها عادت إلى أكمل ما كانت عليه في أقل من نصف ساعة زمانية، فأكبّ يحيى على رجلي مقبلاً لها".

ويذهب جابر -في كتاب الميزان الصغير- إلى أن تركيب وطبيعة العنصر أو الجوهر يرجع إلى طبيعة العلاقة بين كميته وكيفيته، وهو يعرض لخمسة أشكال لهذه العلاقة ينبغي لطالب العلم أن يتمرس بها بطول دراستها، وكي يخرج له علم أسرار الخليقة وصنعة الطبيعة، ويكون عالمًا بموازين هذه العناصر.

درس جابر خواص العناصر المعدنية وكيفية تحويلها كيميائيًّا، دراسة علمية دقيقة أدت به إلى قيامه بكثير من العمليات والتفاعلات الكيميائية. ووصف ميزانًا خاصًّا لمعرفة النسب بالمختلطة بين الجواهر أو المعادن، مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص وغيرها فقال: "فإذا أردت ذلك فاستعمل ميزانًا على هيئة الأشكال، ويكون بثلاث عُرى خارجة إلى فوق، واعمل بهذه الكفتين كعمل الموازين، أعني من شدك بها الخيوط وما يحتاج إليه، ولتكن الحديدة الواسطة التي فيها اللسان في نهاية ما يكون من الاعتدال، حتى لا يميل اللسان فيها أولاً قبل نصب الخيوط عليها إلى حبة من الحبات، ويكون وزن الكفتين واحدًا وسعتهما

أسهم جابر بن حيان في بناء المنهج التجريبي مقابل المنهج العقلي اليوناني، وبتطبيق هذا المنهج أرسى قواعد علم الكيمياء، ووصل به حدًّا جعل كل من أتوا بعده تلاميذ في مدرسته الكيميائية التي أسسها وامتد أثرها إلى العصر الحديث.

واحدة، ثم شد الميزان كما يُشد سائر الموازين، ثم خذ إناء فيه ما يكون عمقه إلى أسفل نحو الشبر أو دونه، ثم املأ ماءً قد صفّي أيامًا من دغله وقذره، ثم اعمد إلى سبيكة ذهب أحمر خالص نقي جيد ويكون وزنها درهمًا، وسبيكة فضة بيضاء خالصة ويكون وزنها درهمًا، ويكون مقدار السبيكتين واحدًا، ثم ضع الذهب في إحدى الكفتين، والفضة في الأخرى، ثم دل الكفتين في ذلك الماء الذي وصفنا، إلى أن تغوصا في الماء وتمتلئا من الماء، ثم اطرح الميزان فإنك تجد الكفة التي فيها الذهب ترجح عن التي فيها الفضة، وذلك لصغر جرم الذهب وانتفاش الفضة، وذلك لا يكون إلا من اليبوسة التي فيه. فاعرف الزيادة التي بينهما بالصنجة واعلم أن بينهما دانقًا ونصفًا.

نظرية تكوين المعادن

وقف جابر طويلاً أمام عنصر الكبريت، وأجرى عليه كثيرًا من التجارب، وبحث فيه كثيرًا.. وسجل أبحاثه في مؤلفاته، حيث وصف فيها جميع صور الكبريت المعروفة حاليًّا، مثل زهر الكبريت (الكبريت الذهب) والكبريت المطاط، والكبريت العمود.. ورأى جابر أن عنصر الزئبق يتحد ببعض المعادن مثل الحديد. وبالبحث والتجارب انتهى جابر إلى أن الزئبق يتحد بأكثر المعادن اتحادًا كيميائيًّا متخذًا صورة ملاغمة عن طريق تكوين الأصرة المعدنية، تلك التي لم تُعرف بعدَ جابر إلا في القرن العشرين.

ومن أبحاثه وتجاربه في الكبريت والزئبق، انتهى جابر إلى تدشين نظريته في تكوين المعادن، حيث سادت نظرية العناصر الأربعة في العصر اليوناني،

hiragate.com

وانتقلت إلى العالم الإسلامي. ومع أن جابرًا بن حيان قد أخذ بها، إلا أنه تقدم تقدمًا ملحوظًا عليها وعلى غيرها من النظريات اليونانية، وذلك بوضعه نظريته في طبيعة المعادن أو نظرية الكبرت والزئبق، التي ضمّنها في بعض مؤلفاته، خاصة كتاب المائة، وكتاب الإيضاح.

ودشن جابر هذه النظرية مع فهمه التام أنها صورة تقريبية لما يحدث في تكوين المعادن داخل باطن الأرض. فقد علم يقينًا أن الكبريت والزئبق اللذين يكوّنان المعادن، هما عنصران افتراضيان، وأقرب شيء إليهما الكبريت والزئبق اللذان إذا اتحدا بالتسخين، ينتج عنها الزنجفر طبقًا لهذه المعادلة الانعكاسية:

كبريت + زئبق كبريتيد الزئبق (الزنجفر) الذي ما زال معروفًا في الكيمياء الحديثة بالأسم الذي أطلقه عليه جابر "Cinnabar". ويتم تحضيره في المعامل والصناعة حاليًا بنفس الطريقة التي استحضره بها جابر ودوّنها في كتابه "الخواص الكبير" وفقًا للمعادلة الحديثة التالية:

حرارة: (Hg + S = HgS)

هذا وقد حضّر جابر الأحماض المعدنية الثلاثة الرئيسية في الكيمياء، وهي حمض النتريك، وحمض الكبريتيك، وحمض الهيدروكلوريك. وما زالت هذه الأحماض تمثل أحد الركائز الأساسية في الكيمياء الحديثة. ويمكن الوقوف على تدابير (تجارب) جابر لتحضيرها فيما يلي:

١- حمض النتريك: عرف جابر حمض النتريك واستخدمه في إذابة الفلزات. واشتملت تجربته لتحضيره، على مزج رطل من الزاج القبرصي وهو كبريتات الحديدوز (Fe SO4)، ورطل من ملح الصخر وهو نترات البوتاسيوم أو ملح البارود (KNO3)، وربع رطل من الشب اليماني، وهو ما يُعرف في الكيمياء الحديثة باسم KAI(SO4)2 H2O. ويفسر التفاعل الكميائي في هذه التجربة بأن الحرارة تفك كبريتات الحديدوز، فتعطي غاز ثاني أكسيد الكبريت وغاز ثالث أكسيد الكبريت، وتعطي هي والشب ماء التيلور. ومع مساعدة الشب في عملية الانصهار يذوب ثاني وثالث أكسيد الكبريت في الماء، فينتج حمض الكبريتيك الذي يتفاعل مع نترات البوتاسيوم فيعطي حمض النتريك. وتعبر الكيمياء الحديثة بالمعادلات عن سلسلة التفاعلات التي تتم في هذه التجربة هكذا:

FeSo4 Feo + So3
So3 + H2o H2So4
H2So4 + 2KNo3 HNo3 + KSo4

٢- حمض الكبريتيك: أجرى جابر تجربة استحضار حمض الكبريتيك من الزاج الأزرق الذي سمّاه "زيت الزاج" أو "الزيت المذيب"، وهو كبريتات النحاس في الكيمياء الحديثة. سخن جابر بشدة الكبريتات وبها ماء تبلور، فأعطت غاز ثاني أكسيد الكبريت وغاز ثالث أكسيد الكبريت اللذين تفاعلا مع بخار الماء الناتج من حرق الكبريت، فنتج حمض الكبريتيك وفق التفاعلات الكيميائية الحديثة الآتية:

FeSo4 Feo + So3
CuSo4 Cuo + So3
So3 + H2o H2So4

٣- حمض الهيدروكلوريك: أجرى جابر تجربة تحضير حمض الهيدروكلوريك بتقطير مركب مخلوط من ملح الطعام وهو كلوريد الصوديوم، والزاج القبرصي وهو كبريتات الحديدوز Fe SO4. وبتسخين هذا المخلوط تفكك حرارة الزاج القبرصي إلى غاز ثاني أكسيد، والكبريت وثالث أكسيد ويذوب هذان الغازان في ماء التبلور الناتج بالحرارة عن الكبريتات، فينتج حمض الكبريتيك الذي يتفاعل مع ملح الطعام، فينتج حمض الهيدروكلوريك. ويعبر بالمعادلات في الكيمياء الحديثة عن هذه التفاعلات الكيميائية التي أجراها جابر بن حيان هكذا:

FeSo4 Feo + So3
So3 + H2o H2So4
H2So4 + 2NaCl Na2So4

والجدير بالذكر أن الغرب لم يعرف حمض الهيدروكلوريك، إلا في منتصف القرن السابع عشر، حيث حضره الألماني جلوبرست ١٦٤٨ بنفس طريقة تحضير جابر بن حيان، والتي ما زالت قائمة في الكيمياء الحديثة. ■

(*) أكاديمي وباحث / مصر.

hiragate.com

د. حسن الأمراني*

العروق الصوادي

أيُّها العبْدُ، هل سمعت المنادي ... صادعًا كلَّ مجْمعٍ أو نادِ؟
يا لها صيحةً تصدّع منها ... كل صلد من حاضرٍ أو بادِ
أيّها العبْدُ، طال مُكثُك في الأرض ... فقد آن موْعدٌ للمعاد
هل تزوّدتَ؟ إنَّ كلَّ رحيلٍ ... أيها العَبْدُ ظامئٌ للزّادِ
فإلى مَ الآمالُ تقطَعُ عنْك ... الدَّرْبَ يا غافلاً.. وفيم التَّمادي؟
أنت من طينٍ قدْ خُلقتَ وللطّينِ ... بلا ريبةٍ مآب العبادِ
آه مِنْ وحْشةِ القُبورِ، وبيْتٍ ... الدُّودِ.. يغْشى السَّواد إثْر السَّوادِ
كيف منْجاتُكَ الغَداةَ؟ وكلٌّ ... خائفٌ بَيْنَ رائحٍ أو غادِ
إنَّ أولى منازلِ الغدِ، لو تَعْلمُ ... بيتٌ يعْلو بلا أوتادِ
روضةٌ مِنْ دار الخلودِ أعِدّتْ ... لو درى غافِلٌ، لأهْل الرشادِ
وإذا لم تكُنْ... فحفرةُ نارٍ ... لنُفُوسٍ لم تَأْتَزِرْ بالسَّدادِ
هيه يا عبْدُ.. كم يطُولُ التمنّي ... والرَّدى للأنام بالمرْصادِ
فتزوَّدْ.. قَدْ آذنتْ بزوالٍ ... شمْسُ عُمْرٍ جَرتْ مع الآبادِ
كمْ بَلَلْتَ الشِّفَاهَ وهي صوادٍ ... آه بل إنها العُروق الصَّوادي
لم يزدْكَ السَّراب إلا أواما ... والشَّرابُ اللذيذُ ظلَّ يُنادي
كانَ ما بَيْن راحتيْكَ ولكنْ ... حَجَبَتْهُ عَنْ ناظِرَيْكَ العوادي
وكُؤوسُ الرِّضا دعَتْكَ ولكنْ ... أسْكرَتْكَ المُنى بلا ميعادِ
قالتِ النَّفْسُ: ما مُرادِيَ إلا ... لَذةٌ.. والحرامُ شَرُّ مُرادِ
لا تُطِعْها.. فكمْ تَردَّى مُطيعٌ ... للْهوى.. والهوَى مَطِيّ الفَسادِ
كلُّ شيءٍ وإنْ يطلْ فقصيرٌ ... كلُّ ما ينْتهي غدًا للنَّفادِ
ليْسَ يَبْقَى إلا الذي تحْتَ ظلِّ ... الله يبْقَى سناه يومَ التَّنادي

---

* رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب

علي المرضي*

لا ميلاد بلا ألم

وقتَ الضحى حملتُه، ولم أكن أدري حين حملته أنه هو الذي سيحملني، ليُطوِّف بي عالمًا لم يسبق لي أن زرته، ولا أن عرفته، ولا أن حُدِّثتُ عنه.. عالمًا مزج بين الحقيقة والخيال، وبين التاريخ والحاضر والمستقبل؛ فيه طيف من حزن، مع طيف من شجن، مع طيف من ألم، مع مسحة من أمل.. بسمة ثم دمعة، ضحكة ثم أنّة، رعشة ثم رجفة، وهكذا.. حملني بعيدًا حتى أسمعَني صوت الجماد، وفهّمني منطق الطير، وجعلني أرى ما لم أكن أنتظر أن أراه، وأسمع ما لا يمكن سماعه.. ذاك هو كتاب الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تعالى: "عودة الفرسان، سيرة محمد فتح الله كولن رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب"، ولعل من يعرف الشيخ فريد الأنصاري وقرأ له، يدرك جيدًا قدرة هذا الأديب على الأخذ بمجامع القلوب حين يخط بمداده، ويعلم قدرته على استثارة العواطف وتهييج الأحاسيس، وبراعتَه في سلب القارئ قدرته على التحكم في نفسه وعواطفه، فيجد نفسه مرغمًا على السير كما أراد له الأديب، يأخذ بيده خطوة خطوة، فيرفعه كلما ارتفع، ويخفضه كلما وضع.. حتى إنك لتشعر إذ يصف أنه يشِفُّ، وكأنك تتجول برفقته، ويريك المشاهد مشيرًا بسبابته، كأنما هو دليل سياحي يبكيك متى أراد، ويضحكك وقتما يشاء، وما لك أيها المسافر في رحلة كتابه إلا أن تنقاد.

كنت أعرف أسلوب الشيخ قبل أن أقرأ الكتاب، لكن الذي كنت أجهله، أنه لن يقف التأثير عند حدود زمن القراءة، بل سيمتد بي مدة أطول، أكون فيها على كل أحوالي هائمًا بما قرأته، فيتراءى لي في غدوتي وروحتي، وأسمع خيالاته، وأرى علاماته، حتى خفتُ

على نفسي إذ تكاثرت عليّ. أجل، لقد استطاع بسهولة كبيرة أن يفقدني سيطرتي على نفسي، ويخرجني من الشعور بالزمان والمكان.. كنت مغيبًا عن الواقع، أقرأ سطور الكتاب في السماء، وفي زرقة الماء، وعلى سقف غرفتي، وفي قبلة مسجدي.. في السوق أسمع كلماته، لا تتوارى خلف ضجيج الزحام، ولا تضيع بين كثرة الوجوه.. لقد أسرني حقيقة، وجعلني مشدوهًا متفرسًا في صفحة فتح الله كولن، لا أفكر إلا في الكتاب، راحلاً بين محطاته، تدق بها نبضات قلبي، وأسمع لأصواتها صدى في أعماقي يهزني.

نعم وللحقيقة أقولها، لقد أثر فيَّ هذا الكتاب كما لم يفعل كتاب من قبل. ولربما كان سبب ذلك، أنه صادف فترة من حياتي كنت في أشد الحاجة فيها إلى مثل هذا الشعاع، وإلى هذا الفتيل المنير، وإلى هذا القدوة العظيم، حتى يقودني إلى الهدف الذي كنت أُكِنُّه في تابوتي مدة من الزمن، فقد جاء على قدر، وبقدر، ولقدر علمه الله.. نعم هكذا كانت قصتي معك يا دكتوري العزيز.

يتحدث الكتاب عن داعية تركي معروف اسمه "محمد فتح الله كولن"، ولد سنة ١٩٣٨م. ومعنى "كولن" بالتركية: "الضحاك"، وهذا كما قال الكاتب من عجائب الأضداد؛ لأن فتح الله لم يُعرَف إلا باكيًا، ولذلك كرر الكاتب هذه المقالة كثيرًا بين تضاعيف الكتاب:

"فتح الله لديه سر ليس يبوح به!

فتح الله لديه سر تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحدًا!

فتح الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به، ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمع لمأتمه!

فتح الله وارث سر، لو ورثه الجبل العالي؛ لانهد الصخر من أعلى قمته، ولخرّت أركان قواعده رهبًا!"

فتح الله بكى كثيرًا، ولا زال على حاله تلك، لكنه يأمل في أن يضحك العالم كله، حتى يعيد بمجالس النور التي رسمها؛ نور الحياة الحقيقي، الذي درست معالمه واختفت خيوطه الذهبية لكثرة الغبار المتطاول عليها من زمن النبوة الأول.. هكذا وصفه الدكتور فريد، وبالغ في وصفه بكلمات الجمال والجلال، حتى استمكن حبه من قلبي، واحتار دمعي لدمعه، وبكت

وقتَ الضحى حملتُه، ولم أكن أدري حين حملته أنه هو الذي سيحملني، ليُطوِّف بي عالمًا لم يسبق لي أن زرته، ولا أن عرفته، ولا أن حُدِّثتُ عنه.. عالمًا مزج بين الحقيقة والخيال، وبين التاريخ والحاضر والمستقبل؛ فيه طيف من حزن، مع طيف من شجن، مع طيف من ألم، مع مسحة من أمل.

حراء

مقلتاي لمقلتيه الطاهرتين.

والحقيقة أن هذا الرجل البطل (فتح الله كولن)، تثار حوله أمور كثيرة اعتراضًا على مواقفه السياسية، ناهيك عما يلام به من أمور عقدية ومنهجية، ولكني ممن يعمل بالقاعدة القائلة: "خذ الثمار وارم الحطب بالنار". لذلك لا أنصح المبتدئ في العقيدة، أو الشادي في علوم الشريعة أن يطالع كتبه، ولا كتب شيوخه، إلا إذا تمكن من تمييز السليم من السقيم، وجَلَّ من لا يخطئ، وكلنا ذاك المخطئ، هذا مع ما له في كتبه من روائع الحكم، وفتوحات أهل الصفاء الروحي.. ومن ثم احتفظتُ بصورة "فتح الله" كما رأيتها في الكتاب، وكما شاهدتها مرسومة على محياه الطاهر، لا كما شاهدتها في الإعلام.

الكتاب هو آخر ما جادت به قريحة الدكتور فريد رحمه الله، وقد كانت فيها بصمته الأخيرة التي بصمها عالم الغيب في نفسه، كانت ظاهرةً جلية، فيها مواجيده العتيقة، ودموعه الحرَّى، ومشاهداته العجيبة.. فلا أذكر أنني سَلِمتُ مرة من مداهمة دمعة حارة، أو زفرة حادة، أو شهقة عميقة وأنا أطالع رحلة الراوي خطوة خطوة، ومشهدًا مشهدًا.

ومن العجيب الغريب، أن هذه النسخة التي قرأت فيها ليست لي، ولا طلبتها من صاحبها! بل قد رأيت الكتاب مراتٍ ومرات على المكتبات وعلى أرصفة الطرقات، وكم سنحت فرصٌ وفرص لشرائه، لكن لم أفعل.. بل أتى إلي وكأنه يخاطبني من بين كومة الكتب المعدة للمطالعة فوق مكتبي، وكأنه قفز إلي وقال: هيت

hiragate.com

لك! أنا دواء سقامك يا سيدي، وأنا طبيب جراحك أيها المثخن، افتحني فستتدفق عليك أشعة النور لتغمرك ومَن حولَك، هيا لا تتردد، فأنا وارث سر عجيب.. فما إن أخذته لأتصفحه ولأقرأ أسطرًا منه، حتى وجدت روحي في عالم غريب على قلبي؛ فإذا هو لذة تتبعها لذة، وشوق يتبعه شوق، ودمعة تتبعها دمعة، وحزن يسليه حزن.. لم أستطع أن أفارق الكتاب، إلا وأنا هائم في التفكير في مشاهده، أسبح في تياراته، تأخذني يمنة ويسرة، في عالم لا أدري كيف أصفه.. كان الأسلوب أدبيًّا رائعًا، معتمدًا على الإشارة والهمس، فيه عبارات وعِبرات تؤسس معناها بمبناها، ساقتني بين مكناس وتركيا وأندلس الأشجان، فإذا بالتاريخ المنقضي يمضي منبعثًا من جديد، ليتعانق والمستقبل أمامي، في مشهد نادر جمع المتناقضات، واختلطت فيه الأحاسيس والمشاعر.. فلم أكن أدري هل أسرِّع القراءة حتى آخذ نهمتي، أم أبطئ حتى أشبع متعتي!؟ فكنت كما وصفتُ مسلوب الإرادة.. منفلت الزمام.. تقودني الكلمات وتغرقني الدمعات.

جعلتُ أبحث عن الأسباب الأخرى التي دفعتني لهذا التيه الشديد، وأغرقتني في هذا الهيام الخاطف، فوجدتها متشابكة متداخلة، فمنها شَبهي الكبير بفتح الله آلامًا وآمالاً، واقعًا وحلمًا.. ومن الأسباب المهمة أيضًا، أن الرجل أذكى جذوة في قلبي وأججها وسعرها، ظللتُ زمنًا طويلاً أتعهدها خوفًا من أن تنطفي، وذعرًا من أن تختفي.. ومن ذلك أيضًا، تجديده لحنين الشوق إلى مجد الأمة المسلوب؛ فقد نبش الجرح الغائر في كبدي، ورد إلى مفكرتي ألم الأندلس الحزين، وواقع تركيا الأليم، ومأساة الأقصى الأسير، ورد التاريخ للواقع، فرسمه أمامي، فعادت نسائمه تداعب أنفي، أشم رائحتها تنبعث من بين دفتي الكتاب، تناديني صوامع المساجد، ودروب الأحياء، وخشخشة نعال الناس.. حتى لكأني فيه حقيقة، وفي شوارعه، أسمع بكاء المآذن، ونوح المنابر، وأرى حزن الحمام، وأسمع نوح اليمام، وصهيل خيول الفاتحين.. ومن ذلك أمور أخرى لا أجد طاقة للتعبير عنها بكلام.

هذا الكتاب بالنسبة إلي، محطة مهمة في طريق سيري إلى الله، جددت به إيماني وخشيتي وتقواي، وأعلنت -بسببه- أنني انخرطت فعلاً في قوافل فتح الله، وصرت من جنود الفاتحين، ولبست لأُمَتي، وامتطيت فرسي، وأخرجت سيف النور من غمده، مستعدًا للإغارة على جيوش الظلام، وقررت ألا أترجل عن فرسي إلى أن ألقى الله، وقراري هذا شرطه ألا يكون فارسه إلا من الكُمَّل من الرجال، أن يكون من الصالحين المتقين، لأن هؤلاء الفاتحين خيارٌ من خيارٍ من خيار.

ويكفي أن أشركك بجملة من الكتاب، حفرتْ كبدي إذ قرأتها، حتى سمعت لها أزيزًا بين أضلاعي، لتتبين بنفسك، وتتأكد أنني لم أبالغ في وصف الكتاب، ولم أكذب في وصف حالي كذلك، يقول الدكتور فريد متحدثًا عن فتح الله: "فتح الله لا يملك في هذه الدنيا سوى ملابسه القديمة، ومحفظة أحزان قديمة، تصحبه أنى حل وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقة، الأول مفتاح "الباب العالي" في إسطنبول، والثاني مفتاح "باب الحِطَّة" في المسجد الأقصى، الثالث مفتاح "جامع قرطبة" في أندلس الأشجان".. هذه الكلمات تلخص لك الكتاب كله، فهذه المفاتيح الثلاثة التي يحملها فتح الله ظل يبكي.. ويبكي.. ويبكي.. راجيًا أن يكون ممن يفتح تلك الأبواب، ويتشرف بإعادة الإسلام إليها كما كان.. فلا تعجب إن بكى فتح الله والناس يضحكون، ولا تعجب إن بكى فتح الله والناس يمرحون، ولا تعجب إن بكى فتح الله والناس في غمراتهم ساهون؛ إذا كان قد أدى ما عليه من واجب وزيادة، وفتحَ باب إسطنبول وإن لم يتم فتحه كاملاً بعد، فمن لبقية الأبواب الأخرى؟ متى سيولد فتح الله الجديد؟ ومتى سيولد صلاح الدين الجديد؟ ومتى سيولد عقبة بن نافع الجديد؟ حقيقة لا أدري، لكن الذي أدريه وأوقنه وأعقله، أنه لا بد من أن يولد، ولكن "لا ميلاد بلا ألم". ■

(*) كاتب وأديب مغربي.

hiragate.com

أ.د. أحمد عبادي*

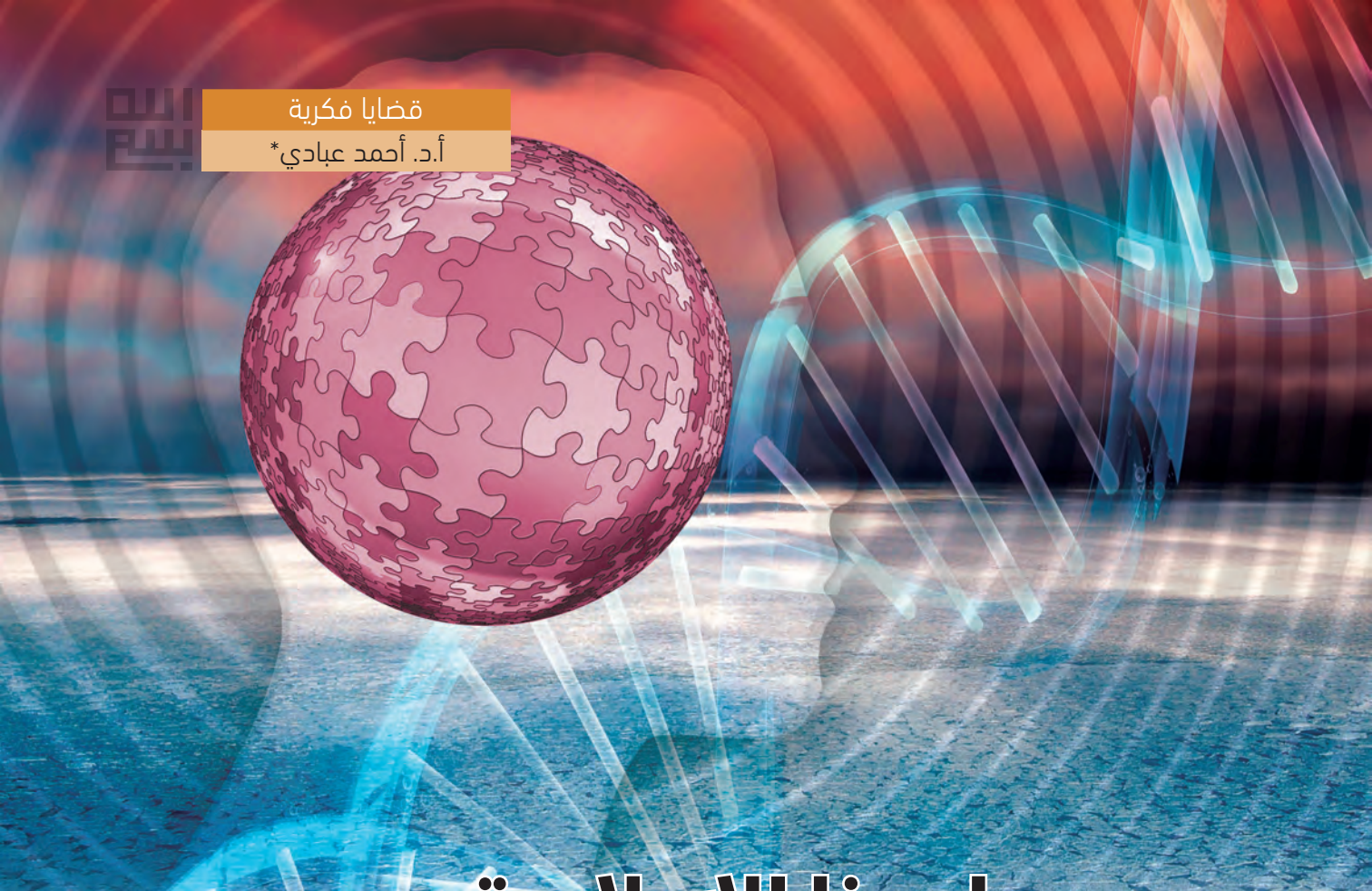

علومنا الإسلامية
والسياق الكوني المعاصر (٣)

٤- آفاق القراءة والتلاوة للآيات

حين نتحدث عن تجديد العلوم الإسلامية، وجب استحضار مستويات علمية تعد بمثابة الرافعات المنهاجية للعملية التجديدية، وهي كالآتي:

المستوى الأول: القراءة

إن أول ما أشرق من أنوار هذا الوحي الخاتم على دنيا الإنسان هو قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، ومنذ هذا الإشراق الأول يتبين لنا أن ثمة أمرًا بقراءتين:

القراءة الأولى: قراءة في الخلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، ولا شك أن هذه القراءة في الخلق لها أبجدها ولها آلياتها ولها خطواتها ولها مؤشرات تقويمها.

القراءة الثانية: هي القراءة في الكتاب المسطور: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إن فعل القراءة في عالم الإنسان وفي دنياه أصبح -بحمد الله- ممكنًا بإقدار الله ﷻ لهذا الإنسان على هذه القراءة؛ وتجلّي هذا الإقدار في الجانب المنظور كان من خلال الأسماء وتعليمها: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١)[1].

أما في الجانب الذي هو جانب الكتاب المسطور فنجد الكلمات، وذلك في قول الله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾(البقرة:٣٧). هناك إذن، الأسماء في الكتاب المنظور، وهناك الكلمات في الكتاب المسطور، وهناك -كذلك- المواءمة بين الإنسان وبين الكتابين،

وهي مواءمة كانت ممكنة بسبب الدمغة الأولى والفطرة الأولى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠).

وتقوم هذه المواءمة الممكّنة من القراءتين في الجانب المنظور "الكوني"، وفي الجانب المسطور "جانب الوحي"، على مجموعة من الأسس أبرزها البنائية. ففي الجانب المنظور "الجانب الكوني"، نجد أن هذا الكون بناء عضوي: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧)، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾(النازعات:٢٧-٢٨).

وهذا البناء له مقصدية هي التسخير: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠)، وفي مواطن من كتاب الله يبرز أن هذا الكون وحيُه هو أن يتسخّر لك أيها الإنسان، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾(فصلت:١٢)، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:٤-٥)، وحيًا جديدًا، فحين يقول الإنسان: ما لها؟ ما لها لا تتسخر؟ يكون الجواب: إن ذاك الوحي القديم الذي هو وحي بالتسخر، قد نُسخ كما قال الإمام القرطبي في جامعه: "بوحي جديد هو وحي بعدم التسخر؛ لأن زمن الحساب قد أزف"، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٥). فهذا الكون إذن مسخَّر، ويمكّن من هذا التسخير كون الإنسان قادرًا على تفهّمه من خلال المقوّمات التي زوّده الله ﷻ بها، وفي مقدّمتها المواءمة ثم قدرة معرفة الأسماء.

أما في الجانب المسطور "الوحي"، فنجد أنه هو أيضًا بناء؛ فالله ﷻ يتحدث عن القرآن المجيد فيقول: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقان:٣٢)؛ والشيء الرَّتل هو الحسن البناء والنَّضد. والقرآن المجيد من خلال هذا البناء، كأنه جملة واحدة كما نصّ عليه أبو بكر بن العربي رحمه الله حين قال: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرّض له إلا عالم واحد.. ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حمَلَة، ورأينا الخلق بأوصافِ البطَلَة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورَدَدناه إليه". وللإمام الشاطبي كلام أيضًا بهذا المعنى؛ أي أنّ "القرآن كالخبر الواحد وكالجملة الواحدة"، وابن حزم الأندلسي أيضًا له في إحكامه كلام يفيد هذا المعنى، والبرهان البقاعي، والبدر الزركشي وغير هؤلاء.. كلهم تكلّموا عن كون القرآن المجيد بناء عضويًّا، وأنه لا يفهم إلا بردّ بعضه على بعض.

وهذه البنائية هي التي مكّنت الإنسان من أن يقوم بالقراءة من خلال تلقي الكلمات، وهذا أبرز تجليات المواءمة بينه وبين كتاب الختم. وقد ذمّ الله ﷻ الذين جعلوا القرآن عِضين؛ أي الذين يفرّقونه ويعضّونه، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۞ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩٠-٩١).

وإذا كانت القراءة في الجانب الكوني تتم بالتفكّر: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾(آل عمران:١٩١)، فإنها في الجانب المسطور "الوحي" تتم بالتدبر: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

التسخير والتيسير ومفهوم القراءة في القرآن الكريم

من الأمور التي تتجلى من خلالها جمالية التعبير القرآني، التقابل بين "سخّر ويسّر"؛ فهناك التيسير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ في أربعة مواضع من سورة القمر، وفي سورة مريم؛ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾، إلى غير ذلك من مواضع ورود التيسير في القرآن الكريم. وهناك التسخير الوارد في مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾(النحل:١٢)، ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾(الجاثية:١٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣)، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾(الأعراف:٥٤).

إن القراءة في الكون المسخَّر هي التي أعطتنا علوم التسخير، أي إن حوار الإنسان مع الكون من خلال هذه المواءمة التي له معه من خلال إقدار الله إياه على

hiragate.com

الدخول إلى مساربه بالأسماء، وتفكيك مجملاته هذا الحوار، هو الذي أعطى علوم التسخير التي تجعلنا قادرين على الحركة وعلى الفعل؛ إذ الكون هو مرجع الحركة ومرجع الفاعلية.

في الجانب الآخر نجد أن القراءة في الوحي الميسَّر هي التي أعطتنا علوم التيسير، فالحوار مع الوحي هو الذي مكّننا من القدرة على تبيّن الوجهة والقبلة المقصودة بالفعل والحركة، وحوار الإنسان المستدام مع الوحي من خلال بنائيته ومن خلال المواءمة التي له معه، وكذا من خلال القدرة على التفهّم بسبب الكلمات التي أوتيها وتلقّاها عبر الرسل الكرام -عليهم جميعًا أزكى السلام- هو ما مكّن من تنمية علوم التيسير. قال عليٌّ كرم الله وجهه: "ذلكم القرآن فاستنطقوه"، وفي رواية عن عبد الله بن مسعود ﷺ: "ثوّروا القرآن"؛ أي حرّكوه لكي يخرج مكامنه.

فالقرآن المجيد، في موازاة مع الكون الذي هو مرجع للحركة والقدرة والفاعلية، يصبح مرجعًا للقيم، ومرجعًا للوجهة ولحضور القبلة التي سوف ترشّد هذه الحركة. وجليّ أن القدرة على الحركة بدون قيم وبدون وجهة وبدون قبلة، قد تجعل من هذه الحركة فاتكة بالإنسان وبالأرض -الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان- وبمحيط الإنسان.

وهو ما حذّر منه رب العزة في سورة الأعراف في سبع آيات مفصلاتٍ فيها بيان، أن العلاقة الوطيدة بين القراءتين هي سبب الحياة والنماء، كما فيها أن الانفصال بينهما سبب الفساد والهلاك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(الأعراف:٥٢-٥٨).

إن العناية بإزاء القراءة في الكون مرجع الحركة والفعل، بالقراءة في الوحي لاستبانة القبلة، ولاستمداد الوجهة منه في محافظة دائمةٍ على الوصل، والجمع بين هاتين القراءتين هو ما يجعل الحركة والفاعلية راشدتين بانيتين: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦).

المستوى الثاني: التلاوة من خلال التجسير بين الوحي إلى الواقع

فسيدنا رسول الله ﷺ قد تلا الآيات في سياقه الذي هو المدينة المنورة، ورسم المنهج الذي به تكون القراءة، وتكون التلاوة، في استحضار للتمايزات المكانية والزمانية والذهنية التي لها تأثيرٌ وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، وقد سجل عليه الصلاة والسلام حالة الحكمة؛ أي وضع الشيء في موضعه.

إذ قراءاته -عليه الصلاة والسلام- كان يقرأها باعتباره حالة السواء؛ فهو الإنسان الذي يشكل الوحدة القياسية، أي الحالة الأكمل الممكن تصورها في بني آدم عليه الصلاة والسلام، وهو الإنسان الكامل الممكن الذي تبلورت فيه كل الفضائل، وكل المزايا، ومن هذه المزايا -والتي تُبين صلاحية حالة السواء، وتخرجها

الحوار مع الوحي هو الذي مكّننا من القدرة على تبيّن الوجهة والقبلة المقصودة بالفعل والحركة، وحوار الإنسان المستدام مع الوحي من خلال بنائيته ومن خلال المواءمة التي له معه، وكذا من خلال القدرة على التفهّم بسبب الكلمات التي أوتيها وتلقّاها عبر الرسل الكرام، هو ما مكّن من تنمية علوم التيسير.

حراء
hiragate.com

من الأحدية إلى المحمدية- كونه عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٩-١٣٠)، وهو ما تؤكده أيضًا الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩). فالخروج من الأحدية إلى المحمدية، من لدن الإنسان الكامل الذي يشكل الوحدة القياسية -عليه الصلاة والسلام- هو الذي يجعل هذا التنزيل وهذه التلاوة، تكون بحسب مقتضيات الرحمة، وبحسب مقتضيات الرأفة سيرًا بسير الضعيف من أمته عليه الصلاة والسلام[٢]، ورفعًا برفع الحرج عن ذوي الحاجة منها.

إن القراءة من حيث هي أداء لفظي للآيات والنص القرآني، هي تطبيق لأصل المعنى اللغوي للتلاوة وهو الاتباع والتتابع، ففي قراءة النص اتباع الألفاظ بعضها ببعض، هذا في إطاره الشكلي، أما في السياق العملي فهي الاتباع حقيقة وهو العمل بمقتضى النص ومعناه، وقد عبر عن هذا المعنى بالخصوص "حق التلاوة"، ذلك أن نتيجة التلاوة الحقة وصف الإيمان.

ونلحظ في معظم الآيات التي ورد فيها لفظ التلاوة باشتقاقاته المختلفة، أن السياق يدل على احتمال المعنيين وهو الأداء اللفظي وإتباعه بالعمل. وإذا أدركنا هذين البعدين للتلاوة، نستنتج أن وعي المعنى ركن هام من أركان التلاوة، هذا إذا قصرنا القراءة على الأداء اللفظي، أما إذا لاحظنا القراءة باعتبارها منهجًا، فإنَّها تتضمن الوعي بالمعنى، فتكون التلاوة مرحلة أعمق من القراءة إذ هي ترجمة للقراءة في السلوك والتطبيق.

وعليه فلا ترادف بين القراءة والتلاوة إنما ارتقاء في درجات التعامل مع النص. وفي معنى التتابع تأكيد لضرورة إدراك الروابط بين أجزاء النص واكتشاف المعنى، وبالتالي تحقيق معنى النص؛ فالتلاوة لا تكون إلا لنص، ومن ثم ترجمة معناه باتباعه. في اختيار هذا اللفظ للتعبير عن التعامل مع النص ملحظ مهم وهو أن القرآن إنما أنزل ليتبع، واتباعه يقتضي قراءته قراءة منهجية تكتشف نظامه بعد قراءة ألفاظه، ومن ثم متابعة هذه القراءة وترجمته إلى سلوك وتطبيق التلاوة.

المستوى الثالث: الترتيل

هو المستوى الذي سماه الله ﷻ ترتيلاً. والترتيل هو النضد، وهو الصفّ، وهو التنسيق في كل المستويات. والفم الرّتِل، هو الفم الذي قد انتضدت أسنانه[٣]. والترتيل لا ينحصر فقط في المستوى الصوتي، بل ينتقل إلى المستوى المفاهيمي، وإلى المستوى المرجعي النسقي، ثم إلى المستوى التنزيلي، ثم إلى المستوى التقويمي.. هذه المستويات يُسلم بعضها إلى بعض، فإذا لم ترتل صوتًا لن تستبين ما هو الترتيل لفظًا.. والترتيل لفظًا له مناهجه من دراسات مصطلحية ومفاهيمية وغيرها، دراسة للكلمة في بيئتها، وفي سياقها مع استحضار لضمائمها، ومشتقاتها، والتصنيف، وغير ذلك من الأمور التي تعطيك في النهاية فهمًا أقرب إلى الصواب للمصطلح القرآني، وهذا بدوره روض أنف، لم تطأه الأقدام الكافية وقد وجب. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) ورضي الله عن سيدنا عبد الله بن عباس حين قال: "علَّمه حتى القصعة والقُصيعة"، والعلماء -وعلى رأسهم بهذا الصدد أبو الفتح ابن جني- على أنَّ المقصود بـ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ هو إقداره على تسمية الأشياء، وهذا الإقدار هو الذي يمكّن الإنسان من تفصيل وتفكيك المجملات؛ بحيث يستطيع أن يأتي إلى مجمل ويفكّكه، وكلُّ جزء ينتج عنده وينجم من هذا التفكيك يكون قادرًا على إعطائه اسمًا، فيضبطه في مكانه من خلال هذا الاسم، وهكذا يستمرّ في التفكيك، ويكون بعد ذلك من خلال هذه الصور والمعالم الأسمائية قادرًا على التركيب، أي إنها قراءة في اتجاهين: تفكيكًا وتركيبًا، قراءة قد أصبحت ممكنةً بسبب هذه القدرة على التسمية.

(٢) إن عدم استبانة الوحدة القياسية أضحى يسبب مشكلاً مزمنًا وخطِرًا للعالمين، والذين طفقوا يبحثون عن الأبطال، ويتساءلون من هو البطل الذي يتبعونه، فتتعدد الدروب. وإذا بالإنسان يصبح في أمر مريج، لا يعرف من يتَّبع، وبمن يقتدي، ولا بمن يتأسّى.

(٣) الصحاح ١٧٠٤/٤، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣٥/٣، "لسان العرب" (٢٦٥/١١)، تاج العروس ٢٦٢/١٤، أساس البلاغة ٢٢٠.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

أسرار في عيون الحيوان

هل فكرت يومًا وأنت تتجول في حديقة الحيوانات وتستمتع برؤية كل نوع فيها وتراقبتها عن كثب؛ كيف تراك هذه الحيوانات أو تشعر بك أو تدرك وجودك؟ وكيف ترتسم صورتك في نظامها البصري؟ وهل تراك صحيحًا أم مقلوبًا؟ أم ترسمك بالأبيض والأسود كأفلام السينما القديمة؟ ماذا ترى الحيوانات؟ وكيف ترى؟

عيون الجمَل

قبل أن يعرف الإنسان النظّارات الشمسية بمدة طويلة عرفها الجمل؛ حيث يوجد في عيونه جفن ثالث شفاف يسدله عليها فيقيها وهج الشمس. تحتوي عيون الجمل على خصائص متناسبة تمامًا مع البيئة التي يعيش فيها، وهذه الخصائص تكون وقائية للعين. فالعظام التي توجد حولها تكون صلبة كي تحمي العين من الضربات المحتملة، وتحميها من أشعة الشمس القوية، لأنها موجودة حول العين بمقاييس غاية في الانسجام والتناسق. ولا تتأثر عين الجمل بأعتى العواصف الرملية التي قد تهبّ في الصحراء، ولا يضطر إلى غلق عيونه بالكلية؛ لأن

جفونه ذات تركيب تستطيع بواسطته أن تدخل بعضها في بعض وتنغلق تلقائيًّا عند وجود خطر داهم، وبهذا الشكل لا ينفذ الغبار إلى عين الجمل مهما كان دقيقًا.

عيون الجياد

دائمًا ما تنظر الخيول (الجياد) أسفل قدميها حين ركْضِها، ولكن لماذا لا تنظر أمامها؟ هل هناك شيء تخشاه؟ ماذا ترى الخيول أصلاً؟ تمتلك الخيول أسلوبًا من أغرب أساليب الرؤية على الإطلاق؛ إذ لا يمكن للخيول رؤية ما هو أمام وجهها مباشرة وبين عينيها، وذلك لأنها تحتوي على عيون ثنائية الرؤية، بمعنى أن العين اليمنى ترى نصف المجال البصري الأيمن، والعين اليسرى ترى النصف الأيسر، وتبقى منطقة عمياء في الوسط بين العينين بخلاف البشر. فأنت ترى نفس الصورة تقريبًا بكلتي عينيك، ويمكنك تجربة ذلك عمليًّا؛ غطِّ عينك اليمنى ثم انظر، ثم غطِّ اليسرى وانظر ثانية، هل ترى فرق في المشهد؟ لا، لأنك ترى نفس الصورة بكلتي العينين.

هل ترى الجيادُ أو تميز كافة التفاصيل بكافة الأوقات؟ إن حاسة البصر لدى الجياد ليست بنفس كفاءة العين البشرية، ولكن مجال الرؤية لديهم أوسع بكثير من مجال الرؤية عند الانسان. رؤيتهم حساسة جدًّا لكافة التحركات المحيطة، بل يتفوقون على البشر في الرؤية الليلية.

كما أن الجياد تستغرق وقتًا طويلاً نسبيًّا قياسًا بالعين البشرية لتمييز وتدقيق وتفهم تفاصيل الأشياء، كما أنها ليس لديها الآلية السريعة أو الشعور الجيد لتفسير وتمييز جسم من جسم آخر. وهذا من أهم الأسباب الرئيسية التي يعاني منها فرسان قفز الحواجز، وبالتحديد عند الحواجز المركبة من عدة موانع، والأخرى المتتالية الموانع، وخاصة مع الجياد الجديدة التي ليست لها خبرة عند الاقتراب السريع من حواجز القفز. مما يعزو إلى كثرة الأخطاء وخسارة السباقات بين الجياد القليلة الخبرة والأخرى المتمرسة.

كيف يمكن للجياد النظر جيدًا في الظلام؟

يمكن للجياد أن ترى في الظلام أفضل مما يستطيع البشر، إلا أنها تستغرق وقتًا أطول للتكيف مع الضوء والظلام من الحيوانات الأخرى. لذا يطلب من كافة المعنيين بشؤون الجياد -وخاصة السياس والمدرّبين والفرسان- التريث والصبر قليلاً، وإعطاء الجياد الوقت الكافي للتكيف عند انتقالها من مكان شديد السطوع إلى آخر مظلم وبالعكس.. وهذا ما يفسر أن الكثير من الجياد تصبح خائفة أو هائجة أو قلقة عندما تدخل إلى الأماكن المظلمة، ومنها سيارات النقل العديمة أو القليلة الإنارة، أو حضورها إلى ساحة السباق المظلمة، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الجياد لا تنسى بسهولة ما الذي عانته من منطقة معينة، وتصبح هائجة أو قلقة كلما حضرت إلى نفس المنطقة، وفي بعض الأحيان تصل إلى حد الحرن مما يصعب السيطرة عليها.

ما هي مناطق الرؤية المبهمة أو العمياء لدى الجياد؟

جهاز البصر لدى الجياد غير متكيف لجميع المناطق المحيطة بالجواد. وقد تعاني الجياد من مناطق مبهمة أو ميتة لا يمكن لها أن ترى فيها، ومنها البقعة التي تمتد حوالي أربعة أقدام أمام الجبهة

المواجهة لرأس الجواد، مع الأخذ بالاعتبار أنه قد تختلف فيها هذه المسافة تبعًا لشكل رأس الجواد؛ فإذا كانت جبهة الجواد عريضة، فإن البقعة المبهمة -أو العمياء- ستكون أطول من الجواد ذي الجبهة الضيقة. لذا يتوجب عدم الاقتراب من الجواد مباشرة من الجبهة الأمامية له، لأنه قد لا يراك إلا إذا اقتربت في حدود المنطقة المبهمة أو العمياء. وهذا ما يفسر لماذا يقوم الجواد برفع أو إمالة أو استدارة رأسه عند اقتراب شخص منه من جبهته الأمامية، أو حتى اقترابه هو من الأشياء الأخرى من الأمام مباشرة.

وقد استغلّ الفرسان أصحاب الخبرة هذا الأمر عند اقترابهم من الحواجز؛ إذ لا يقتربون إلا بزاوية معينة أو ميل معقول، حتى يتركوا للجواد الفرصة الكاملة لرؤية وتحديد الحاجز المقصود، وهذا يمثل أحد أسرار قفز الحواجز والتفوق بها. وقد يصل بالجياد أنها لا ترى صدورها، أو مفاصل ركبتها، أو حتى حوافر أيديها، وكذلك الأرض قرب أقدامها. ويشكل هذا واحدًا من نقاط الضعف في جهازها البصري.

كما أن الجياد لا يمكن لها أن ترى المنطقة، أو الأرض، أو الأشياء التي تقع خلفها مباشرة، وهذه هي أخطر منطقة عمياء في الجهاز البصري للجياد. مما ينبغي على كافة المعنيين بالجياد، الابتعاد وعدم الاقتراب من الجياد من الخلف مباشرة، وإلا سيكون عرضة للضرب عند أي صوت أو حركة غير مفهومة من الجياد.

هل يمكن للجياد أن ترى بعين واحدة؟

عندما تستعمل الجياد العينين، وتركز على موضع واحد للرؤية، فإن ذلك يسمى علميًّا "ثنائي الرؤية". ويمكننا تمييز ذلك عند رؤيتنا للجياد وهي تركز للأمام مع انتصاب الأذنين إلى الأعلى. كما يمكن للجياد أن ترى بكل عين على حدة للجانب أو للأمام أو الخلف، ويسمى ذلك علميًّا "أحادي الرؤية". ويمكن لنا أن نميز ذلك عند رؤيتنا للجياد وهي تدير رأسها أو ترفعه أو تخفضه، للتركيز على الرؤية أو المشاهدة.

هل لدى الجياد المقدرة على تمييز الألوان؟

هناك دراسات وبحوث مستفيضة على طبيعة حاسة البصر لدى الجياد، ولكن إلى الآن يبقى موضوع تمييز الجياد للألوان مجهولاً. فليس هناك أي دليل علمي يثبت أو ينفي ذلك، بل هناك بعض التصرفات التي قد توحي بأن الجياد قد تميز بين الألوان، ومنها جموح أكثر لجياد قفز الحواجز عند الحواجز الزرقاء اللون، وجموحها بنسبة أقل عند الحواجز ذات الألوان البرتقالية أو الحمراء.

عيون القطط والكلاب

القطط والكلاب ضعيفة الرؤية، ولا تستطيع تمييز الألوان جيّدًا "خصوصًا الكلاب". وتعتمد في الغالب على حاسة الشم، لكنها تمتاز بنظام رؤية ليلي قوي. كما أن الكلاب والقطط تمتاز بقدرة أفضل من الإنسان على رؤية مجال بصري أوسع، نظرًا لمكان أعينهم ووضع العينين في الرأس.

إن القطط ترى في الليل بشكل جيّد، لأن عيونها تختلف عن عيوننا، إذ فقزحية عيونها تكتمل عندما تكون في الظلام، وهكذا يمكنها رؤية الأشياء بسهولة.

عندما تجلس القطط في الظلام، فإننا لا نرى جسدها ولكننا نرى عيونها تلمع مهما كان الظلام دامسًا. كذلك فإن عيون النمر، والشيتا، والأسد، وغيرها تلمع أيضًا في الظلام. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا تلمع عيون بعض الحيوانات في الظلام، بينما لا تلمع عيون البشر؟

كثير من الحيوانات لها القدرة على رؤية تثير الإعجاب بالليل. السر في ذلك أنهم يملكون مرآة صغيرة في قعر العين. إن عيون هذه الحيوانات تغطيها طبقة رقيقة للغاية مادة كريستالية خاصة تعكس الضوء الذي يقع عليها، ويكون انعكاس هذا الضوء سببًا في لمعان عيونها. وفي الليل يعكس هذا السطح الكريستالي أقل قدر من الضوء يقع عليها، وبذلك نرى عيون هذه الحيوانات تلمع في الظلام بوضوح كامل، لذا يطلق عليها اسم "الحيوانات الليلية".

وقد لوحظ أن لون هذا اللمعان يختلف من حيوان لآخر، وهو الأمر الذي يتوقف على عدد الأوعية الدموية الموجودة بالعين. فكلما زاد عددها اتخذ هذا اللمعان لونًا أحمر، وإذا كان أقل أصبح لونه أبيض أو أصفر باهت.

عيون الخفافيش

الخفاش هو الحيوان الثديي الوحيد الذي يستطيع الطيران، لذلك تصنف الخفافيش ضمن الثدييات وليس ضمن الطيور.

هل ترى الخفافيش أصلاً؟ وكيف تطير؟

إن كلمة الخفاش مأخوذة من ضعف البصر وضيق العين. فالخفافيش ليست عمياء كما يشاع في بعض الأمثال "أعمى كالخفاش". فلا توجد خفافيش عمياء بنسبة مائة بالمائة، فبعض الخفافيش تملك عيونًا كبيرة وواضحة، بينما الباقي لها عيون صغيرة كالخرزة، ولكنها لا تبصر بهما جيّدًا؛ حيث تحدد اتجاهها من خلال إطلاق الأصوات، وارتداد الصوت يسهّل لها عمليه تحديد الهدف والسرعة المطلوبه، والمراوغه مع فريستها.

عندما تطير الخفافيش ليلاً للبحث عن الطعام ترى وتشم وتسمع، وتصدر أصواتًا ترددية مرتدة لتهتدي بها وتتعرف على طريقها، ولتتجنب الارتطام بعائق يعترض طريقها. فالخفافيش الصغيرة (Microchiroptera) الرمامة، نجدها تعتمد في طيرانها على نوع من "السونار" الذي يعتمد على التنصت لصدى الصوت، ليهتدي به في طريقه. فيُصدر الخفاش نبضات صوتية قصيرة لها تردد عال فوق قدرة الإنسان أن يسمعها بأذنيه. فتنتشر موجاتها أمام الخفاش الطائر، فترتطم بأي عائق في طريقه فترتد الأصوات كصدى ليترجمها بسرعة، ويقدّر المسافة بينه وبين هذا العائق، وسرعته بالنسبة للبعد منه، وحجم الأشياء من حوله، ولا سيما أثناء الظلام، فيدير اتجاهه متجنبًا الاصطدام به. وعلى جانب آخر، معظم الخفافيش الكبيرة آكلة الفواكه، نجدها لا تستعمل وسيلة صدى الصوت، باستثناء الخفافيش التي تسكن الكهوف والمغارات؛ فتستخدم جهاز تحديد الصدى داخل الكهوف، وعندما تخرج للخارج تعتمد علي الرؤية والشم متى يطير.

قرد التارسير (Tarsier)

قرد التارسير صغير الحجم (بحجم السنجاب)، وهو من الثدييات الرئيسية الليلية، يوجد في الغابات المطيرة جنوب شرق آسيا. عينا هذا المخلوق هائلتان، وهي أكبر من عيني أيّ حيوان ثديي نسبة لحجم جسمه. وإذا كانت عينيك بنفس نسبة حجم عينيه لحجم جسمه، فسيكون حجم كل عين من عينيك بحجم فاكهة الجريب فروت.

كما أن عيون التارسير مثبة بالرأس، ولا يمكن إدارتها للنظر، وقد عوّض برقبة مرنة جدًّا تدور ١٨٠ درجة تمامًا مثل البومة. تزن كل عين من عيني هذا المخلوق وزنًا أكبر من وزن دماغه. إن رؤية التارسير حادة جدًّا، ورؤيته الليلية رائعة، وذلك يعود لحجم عينيه.

ويعتقد العلماء أن هذه المخلوقات قادرة على الرؤية ما فوق البنفسجية، ومع كل هذا فإن رؤية الألوان ضعيفة جدًّا لهذا المخلوق كما في الحيوانات ذات الرؤية الليلية الأخرى كالقطط. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiragate.com

رقية أهجو*

الإسلام
والتفاعل بين الحضارات

الحوار بين الحضارات والثقافات، بات ضرورة ملحة للعيش في عالم آمن ومستقر. فمَشاهد العنف والفزع العالمية، لا تُبقي مكانًا لحياة إنسانية ذات معنى، كما هو متوقع في الأذهان والفكر البشري السوي المنطلق من ثوابت لا متغيرة؛ هي بمثابة سنة كونية لا تقبل التحويل، مما جعل من موضوع الحوار بين الحضارات والثقافات ليس فقط ضرورة في المساحات الجغرافية، بل بات ضرورة ملحة حتى في المساحات المعرفية.

ونحن اليوم في حاجة ماسة لأن نجيب على كل الاستفهامات العميقة والواقعية التي يطرحها محيطنا، وأن نرصد مسيرة التحولات كما ينبغي. فالعالم اليوم متعطش للسلام والصداقة والحرية والعدالة الاجتماعية، ويصر على أن يحصل على حريته وحقوقه الإنسانية المشروعة التي تَكفلها له القوانين والضوابط السماوية والعرفية. فالسلام والحرية والعدالة لا تنال بالحرب والتعنت، والميز العنصري، وبث روح التفرقة والشتات بين بني البشر. والسلام الذي يتحقق بالحرب، هش دائمًا وغير متين، أما السلام القائم على العدالة والإنصاف والحوار والمنطق، فهو السلام الحقيقي الدائم.

وحين العودة إلى القرآن الكريم، نجد أن الرسالة التي تخاطب الإنسان -كل إنسان- أينما كان

إن التعايش هو سمة مميزة للإسلام، وملمح جامع يطبع كل جوانبه التشريعية والسلوكية، إنها إحدى أهم قيم هذا الدين وصفاته المميزة التي تعني الحرية للبشر كافة، والمساواة بينهم من غير تفوق جنسي أو تمييز عنصري.

وفي أي زمان كان، يتردد خطابها بعبارة "يا أيها الناس"، وهي رسالة عالمية تخاطب الإنسان كإنسان وكل إنسان، دون ميز ولا تحيز ولا إعلاء لطرف دون آخر.. فحياة الإنسان في منظورها، تعادل حياة كل البشر. فمثل هذه الرسالة تستطيع -دون شك- أن تكون سندًا قويًّا للحب والسلام، وإلا فمن الواضح جدًّا أن الإعراض عن الحوار، وإخماد صوت المنطق وسط ضجيج أصوات المدافع والدبابات، لا يستطيع أن يحقق أمنًا ولا استقرارًا ولا سلامًا.

هذا وقد يلعب الخطاب الديني دورًا فعّالاً في الدفع بعجلة الحوار الحضاري نحو أفق أوسع وأشمل لمناحي الحياة البشرية، ويساعد في خلق أرضية صلبة ومتينة تدعم الحوار بين الحضارات على أسس من الاحترام والتقدير المتبادل بين سائر الحضارات، وإن كانت مختلفة -وحتى متضادة- في المبادئ والمرتكزات والمنطلقات والأهداف، إلا أن الخطاب الديني يعمل على تقريب وجهات النظر، بعيدًا عن الحساسية التي قد تتلبس بها حضارة ما في علاقتها بباقي الحضارات البشرية.

وتجدر الإشارة أول الأمر إلى أن نقطة البداية في إقامة حوار حضاري على أسس متينة وسليمة، تكمن في العودة إلى إصلاح الذات وهي اللبنة الأساسية في بناء وإقامة حوار حضاري فعّال، إلى جانب التمسك بكل قيمنا الأصيلة وبديننا الحنيف الذي يدعو إلى القوة والترابط والتراحم والحب والتعاون وإعمال الفكر والإبداع، بعيدًا عن التشنجات المغرضة.

وإذا ما استطعنا أن نقيم حوارًا ذاتيًّا ناجحًا، إذ ذاك سنكون مؤهلين للتحاور مع الآخر وفق المبادئ التي خطها لها ديننا الذي يحض على الحوار والتفاهم والتعارف والتعايش السلمي، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، وفي هذه الآية الكريمة خطاب يشمل البشرية جمعاء دون تفاضل ولا ميز؛ يدعوهم فيها الله تعالى إلى التعارف ونبذ الفرقة والبعد عن كل ما من شأنه أن يبث روح التفرقة والشتات بين البشر. ويقول تعالى أيضًا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، وهذه الآية من عظام الآيات التي تعقد للحوار البناء؛ ففيها دعوة صريحة إلى تقبل الآخر، وسعة الصدر ورحابته والترحيب بالاختلاف، ففي قوله "جادلهم بالتي هي أحسن" دعوة صريحة إلى التناظر والجدال بأحسن الأوجه وأيسرها برفق ولين وخطاب حسن، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾(العنكبوت:٤٦)، فأمر الله بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حينما بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه:٤٤). فديننا الحنيف يدعو إلى الحوار، والتعايش الحضاري، والتلاقح بين مختلف الحضارات في لين ومحبة وسلام، لأن الحوار في الأصل هو من أجل فهم الذات أولاً، ثم فهم الآخر والتفاعل معه، وليس الخوض في صراعات مقيتة وعقيمة لا تفضي إلا إلى التفرقة ونشوب النعرات بين بني البشر، وانتشار الأحقاد التي لم يستفد منها الإنسان في شيء.

وبقدر ما تعظم الحاجة إلى حوار جدّي بين الثقافات والحضارات لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب ولبلوغ مستوى لائق من التعايش الثقافي والحضاري، تقوم الضرورة القصوى لتهييء الأجواء الملائمة لإجراء هذا الحوار، وإيجاد الشروط الكفيلة بتوجيهه الوجهة الصحيحة. وذلك يتأتى بمعرفة الذات من أجل معرفة الآخر؛ "فالانعزال والتقوقع والانغلاق على الذات في عالم اليوم الذي تحوّل إلى قرية صغيرة بحكم التطور التقني الهائل في تكنولوجيا الاتصال، أمر مستحيل، كما أن الانسياق وراء الدعوة إلى حضارة عالمية واحدة، هو بحد ذاته عملية تكريس لهيمنة الحضارة الغربية،

hiragate.com

وهو طريق التبعية الحضارية الذي يفقدنا خصوصيتنا الحضارية، ويحولنا إلى مجرد هامش لحضارة الغرب"[1]، وتبقى الدعوة إلى حوار الحضارات، التعبير الأسمى الذي يحقق الذات ويكفل الانفتاح على الآخر، ويثمر مستوى لائقًا من التعايش الثقافي والحضاري المنشود.

وتعتبر مسألة تجديد الخطاب الديني، من ضمن الأساسيات التي يجب ألاّ نغفل عنها، إذ من خلاله يمكن إيجاد حلول بديلة لمستجدات يحتمها التطور المعاصر لكل مناحي الحياة. وبتنا اليوم مطالبين -أكثر من أي وقت آخر- بتجديد خطابنا الديني، تماشيًا وخدمة لإقامة الحوار بين حضارتنا الإسلامية وباقي الحضارات، وأن نتجاوز التقليد والطبع والنسخ من الحضارة الغربية.

ويعتبر عامل إقفال الاجتهاد في الفقه الديني، من أبرز الأسباب التي أفرزت خطابًا دينيًا "يرتكز على النقل والتقليد، ويغيّب العقل ويهمّشه"[2]. والصحيح أن الاجتهاد لم يتوقف قط، بل كان محصورًا في حقبة توالت وتعددت فيها الأزمات، إلا أن لا يعني اندثاره اليوم وعدم حاجتنا إليه كما كان مهمًّا في الخوالي. ولم يكن الاجتهاد مهمشًا قط عند الخلف كما عند السلف.

وبالعودة إلى موضوعنا الرئيس، لا بد وأن نشير إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي أن التفاعل الحضاري لا يمكن أن يتم ويتحقق إلا عن طريق حوار بناء وفعّال بين الأديان، "وقد سبق لعالم اللاهوت الألماني هانس كينغ (Hans Kung) أن قال: لا حوار بين الحضارات بدون سلام، ولا سلام بدون حوار بين الأديان، وإذا كان القرن الواحد والعشرون هو قرن الأديان بامتياز كما قال المفكر والكاتب الفرنسي أندريه مالرو، فإن الدين قد أضحى منبع الثقافات وملهمها، ومنه تتأتى معظم خصوصيات الشعوب ومقوماتها"[3].

والإسلام -كدين وحضارة- عندما يدعو إلى التفاعل بين الحضارات، فإنه "ينكر المركزية الحضارية التي تريد للعالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى.. فالصحوة الإسلامية المعاصرة تسعى إلى أن يكون العالم منتدى

إن الحوار في الأصل هو من أجل فهم الذات أولاً، ثم فهم الآخر والتفاعل معه، وليس الخوض في صراعات مقيتة وعقيمة لا تفضي إلا إلى التفرقة ونشوب النعرات بين بني البشر، وانتشار الأحقاد التي لم يستفد منها الإنسان في شيء.

حراء

حضارات متعدد الأطراف، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية، إنما يريد لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام"[4].

والدين الإسلامي وإن كان آخر الأديان السماوية وخاتم الرسالات الربانية إلى بني البشر، إلا أنه ينكر تلك المركزية الحضارية. وفي روح دعوته لا يسعى إلى اعتبار الحضارة الإسلامية هي الحضارة المركزية تلغي باقي الحضارات، وتجبر العالم على التمسك بدين واحد، إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨).

إن دعوة الإسلام إلى التفاعل مع باقي الديانات والحضارات، تنبع من رؤيته إلى التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالاتهم السماوية. فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعًا، يقول تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة:٢٨٥).

بيد أنه لا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسًا راسخًا لعلاقة المسلم مع غير المسلم، على أنه "انفلات أو استعداد للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين. فهذا التسامح لا يلغي الفارق والاختلاف، ولكنه

يؤسس للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس.. فالتأكيد على الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية، لا سبيل إلى إلغائه، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها"[٥].

ولعل أبرز أوجه تأثير الخطاب الديني في تفعيل آليات الحوار بين الحضارات، أن الحضارة الإسلامية أخذت عن الحضارات السابقة، في عدة ميادين في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الصحابة والتابعين، لم ينبذوا كل شيء، كما أنهم لم يأخذوا أي شيء. فقد اقتبست الحضارة الإسلامية من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها، وصَهَرت حصيلة هذا كله في بوتقة التفاعل الحضاري، فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثالاً نادرًا للتفاعل بين الحضارات.

إن التعايش هو سمة مميزة للإسلام، وملمح جامع يطبع كل جوانبه التشريعية والسلوكية، إنها إحدى أهم قيم هذا الدين وصفاته المميزة التي تعني الحرية للبشر كافة، والمساواة بينهم من غير تفوق جنسي أو تمييز عنصري.

إنه ليس هنالك ثمة ما هو أبلغ وأوفى بالقصد في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في الإسلام من الآية الكريمة التي يقول فيها تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤)، ذلك أن المساحة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب، مساحة واسعة. وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعًا للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين بالله. ويشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغيرهم في البلاد المفتوحة، كانت مثالاً رائعًا من التسامح لا مثيل له في التاريخ.. ولعل من أكبر الأدلة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساس متين من التسامح في أسطع معانيه، هو تعايش المسلمين مع أهل الديانات والملل والعقائد في البلدان التي فتحوها خلال قرون متطاولة وعهود مديدة.. ويدل ذلك على أن التعايش مبدأ من المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، والذي يرمي إلى القضاء على أسباب التوتر واضطراب حبال الأمن والسلام وعدم الاستقرار.

فالخطاب الديني الإسلامي، يحمل في طياته معالم نبيلة وسمات كبرى للتعايش ونشر المحبة وإحلال السلام بين البشرية أجمع من خلال الحوار بين الحضارات والأديان، ومن أوجه ذلك أنه لا يرغم أحدًا على الدخول في الإسلام، ولا يدعو إلى الدخول في الحروب إلا للضرورات القصوى. وليس بدعًا -إذن- أن يكون الإسلام -بهذا التفرد- دين التعايش السلمي وليس دين الصدام الحضاري وكم يُتَّهم بذلك. فهو آخر الأديان، أي كلمة الله الأخيرة، وقد استطاع أن يقيم أمة عاش في كنفها المسلمون وغيرهم، وعاشت هي في علاقات مع غيرها أساسها التعارف، مما جعل -ويجعل- للإسلام رسالة تبدأ من التوحيد وتنتهي بالدعوة إلى الوحدة التي يتعايش داخلها كل البشر، تحقيقًا للعدل الحضاري والمساواة والكرامة الإنسانية، بعيدًا عن أي لون من ألوان الصراع وفي منأى عن أي مظهر من مظاهر الصدام الحضاري الذي يستحيل أن يكون الإسلام يحمل شيئًا من بذوره. ■

(*) كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط / المغرب.

الهوامش

(١) مستقبل العالم الإسلامي، سلسلة دورية يصدرها مركز دراسات العالم الإسلامي بمالطا، العدد:٩، السنة ١٩٩٣/٣، ص:١٤٤.

(٢) نقد الخطاب الديني، لنصر حامد أبو زيد، الطبعة الثانية ١٩٩٥، مكتبة مدبولي القاهرة، مصر، ص:١٨.

(٣) الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري في عصر الصحوة، للدكتور حسن عزوزي، ص:٢.

(٤) العطاء الحضاري للإسلام، لمحمد عمارة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧، دار المعارف، القاهرة، ص:١٢١.

(٥) الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الحضاري، لعبد العزيز بن عثمان التويجري، سلسلة المعرفة للجميع، رقم، الرباط ١٩٩٩، ص:٧٤.

د. الحسان حالي*

في التربية المثال

إذا كانت التربية تخريجًا لطراز من الناس وفق تصور ومنهج ورؤية، فإن موقع التربية من الإسلام، في المكانة السامقة، حيث يشار إليها من جوانب عدة. إن بقاء المنهج ودوام نوره ليستضاء به -مع إمكان غياب الطراز- لهو المفتاح الأكبر لحد التربية في الإسلام وبيان جذورها وحدودها وجدواها. جاءت آية كريمة في سورة الفتح تتحدث عن نوع من الناس وطراز خاص منهم، يمثله قمة التمثيل الرسول ﷺ ومن كانوا معه، ذلك قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩).

فالآية أعطت صورة ناصعة عن هؤلاء جميعًا، وأوردت وصفهم ومثالهم في التوراة؛ أنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، ركّع سُجّد، يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، وأثر ذلك ظاهر عليهم؛ سيماهم في وجوههم، كأنهم لا شغل لهم إلا هذا، ولا عمل لهم إلا إياه، ولا همَّ لهم سواه، فلا يظهر ما سواه إلا به ولا يستوي إلا معه.

إنها صورة جماعة مؤمنة خلصت منهم القلوب

إن صناعة البيئة الجماعية وصياغتها، تتيسر بالتزام مبادئ الخطاب التربوي الباني المبني على التضام والتلاحم الذي تؤسسه قاعدة: "أنا من المسلمين". حينذاك يصير الخطاب خطابًا عامًّا، ويصير المنهج منهجًا عامًّا. وهذا هو الذي صيغت به الجماعة المسلمة في بدايات تشكل أمرها نواة للأمة وبذرة للدولة.

وصدقت النيات، فاستخلص التوجه والقصد. وكان نتاج ذلك ثمار يانعة من خير عمل فردي ينشق من واقع عام جماعي؛ إنه وصف فردي ينشق من صورة جماعية، وهنا مكمن الدقة والتدقيق. هذا النموذج ساقت الآية كذلك وصفه ومثاله في الإنجيل: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾(الفتح:٢٩)، هو وصف جماعي ينشق من صورة فردية، ومثال تغلب عليه "الجماعية" لكن باعتبار أثر الفرد داخل الجمع، مثل الزرع وهو حب وبذر يحمل الحياة، ومن البذر والحب يخرج الشَّطْء، ثم ينمو ويطلب الاستخلاص فيأتي الغِلظ. إنه نموذج قمة في الكمال والجمال، فهو بذلك مثال ونوع -إن غاب بقي لنا الوصف والصفة- وهما من أقوى الأسباب لاتخاذ وسائل الارتقاء نحو المثال اقتداءً واحتذاء واهتداء.

وعلى هذا الأساس ووفق هذا الأصل، ينظر إلى قوة ومتانة التربية بالمثال وعلى المثال، وهو منزع داخلي يلح على النفس خصوصًا في زمن البحث عن الذات ومحاولة بنائها وصياغتها، فيسهل ذلك بوجود المثال، وحضور النموذج الذي يدفع بقوة نحو بناء جسد متراصّ اللبنات، مترابط الحلقات، متفاعل الأجزاء. وإذا عُرف هذا، لم تعد هنا حاجة قائمة للسؤال عن مشروعية "التربية" في التصور الإسلامي، وإنما يقوم إزاءنا سؤال ملامح المشروع التربوي الباني، وهو مربط الفرس وموئل الباحث عن أساليب العلاج وأسباب النهوض.

التربية والاستعداد

التربية إنشاء وإحداث وإعداد بمقوم التفاعل والتجاوب، وعلى هذا الأساس لا تتأتى آثار التربية ونتائجها، إلا على مرتكز الاستعداد الذي منه فردي وجماعي.

الاستعداد الفردي

التربية قائمة على الاستعداد.. الاستعداد الفردي أولاً، حيث يكون الفرد مثل البذرة الصالحة للإنبات في البيئة المهيأة للإنبات، فإذا لم يكن هذا الصلاح وهذا الاستعداد، لا يكون ما بعده. إنه استعداد للتفاعل والنمو ليخرج الشَّطْء وينمو ويكبر في الحقل والميدان.. لا بد من كيان مستقبل قابل ثم يأتي الإيمان ليُفعّل الكيان.

إنه في إزاء تربية الأفراد لا بد من حضور القبول، وهو أمر ملاحظ في التوجيهات والإشارات النبوية الدقيقة العابرة للمجال: الأرض التي تقبل الماء "منها طائفة قبلت الماء"، والأرض التي تمسك الماء "منها طائفة أمسكت الماء"[1]. وهكذا ومع هذا فالقبول غير الإمساك، القبول استعداد للانتفاع والشروع في التطور والنمو، أما الإمساك دون القبول فهو دون ذلك، لأنه قد لا يكون له قيمة في الذات، مع أنه قد يقع به مجرد الانتفاع "الآلي"، مثل الإناء يمسك ما يمسك ويشرب منه الشارب فينتهي دور الإناء في الإمساك.

إن ملامح النجاح التربوي تبدأ بملاحظة مخايل الاستعداد الفردي استخلاصًا لمكامن النجابة والقوة والأمانة، قصد دعم البنيان ورص صفه باللبنات الجياد.

وليس من العسير ملاحظة ذلك في "البناء المثال"؛ البناءِ النبوي التربوي، وهو يلتمس في ظروف البدايات الأولى -وما أصعبها من ظروف وما أحسنها لنا من مثال- بناءَ قاعدة الانطلاق الدعوي الحقيقي من خلال الاتصال الفردي الانتقائي، وذلك بمعرفة قابلية الأفراد للتجاوب على أمل الانخراط في موكب التربية الدعوية. وعلى هذا كان النبي يدعو من يثق في رجاحة عقله، لأنه إما أن يقبل الدعوة فيتحقق له القصد وينال المراد، وإما أن يسكت عنه فيحقق معه المطلوب ويحافظ على سرية دعوته وأمنها. جاء في السيرة: "وجعل رسول يذكر جميع ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة، سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله"[2].

ووفق هذا المنهج انتقى رسول الله ﷺ للدعوة،

hiragate.com

واصطفى "رواحل" صدقت فيهم فراسة قابليتهم واستعدادهم للتأهيل التربوي والدعوي، حيث تفاعلوا وتأهلوا في إطار عملية تربوية، فصاروا بُعيد مدة أفرادًا فاعلين، حاملين للدعوة، سائرين بها نحو آفاق أرحب.. فنمت دعوة الناس وتطورت في "متتالية هندسية" أتاحت فشو خير هذه الدعوة، وسرعة وصولها إلى محتضنيها، والعاملين عليها والقائمين على خدمة أمرها تثبيتًا وتبليغًا، وهو ما ينبغي في ظروف البناء لا ما سواه. وهو كذلك ما ينبغي في ظروف إعادة البناء، ذلك لأنه نموذج صالح ثابت الصلاحية لكل وقت وحين، ولكل حيز ومكان.

ولعله يكون من الأفيد ألا ننصرف عن الفكرة قبل أن نضرب مثالاً على هذا، وهو مثال أبي بكر الصديق ﷺ الذي دعاه النبي ﷺ -وكان أعرف الناس به لصداقة بينهما- فأجابه لدعوته وأسلم. وهو أول من آمن من الرجال، ثم قام بعد ما تلقى ما تلقى نشطًا للدعوة، متشربًا قواعدها وضوابطها المحتاج إليها في حينها، ودعا أفرادًا من علية القوم، أمثال عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله.. فأصبحوا هم الذين يشكلون -مع من سبقهم في الإسلام- الصفوة المؤمنة في فترة التخلق، وكانوا "النواة الصلبة" التي أسست على قاعدتها مادة الانطلاق. لا شك أن هذا وما في حكمه، يظهر تصريف لوازم الإعداد الفردي وقف الاستعداد المؤهل للطاقات والمفجر للإمكانات، الموصل إلى النتائج والغايات.

الاستعداد الجماعي

إن الفرد يصل بمستوى التأهيل والإعداد إلى شعور نفسي عارم دافع للسير ضمن ذات أكبر وأوسع وأجمع. إنه شعور نفسي للسير باجتماع، ذلك هو أصل الاستعداد الجماعي الذي هو أصل الانطلاق في الاتجاه الصحيح الموسوم في صورة المثال في الإنجيل: "الزرع وإخراج الشَّطْء". والأمر يكون وفق التكامل وإحداث الانسجام، بحيث يصبح كل فرد -بما يحمل وما يعمل- عمدة ليس هناك فضلة. إذن هناك ملمح التكامل الأساس في البناء الجماعي، وهو يقف على ثوابت راسخة، ولعل

التربية إنشاء وإحداث وإعداد بمقوم التفاعل والتجاوب، وعلى هذا الأساس لا تتأتى آثار التربية ونتائجها إلا على مرتكز الاستعداد الذي منه فردي وجماعي، والاستعداد الفردي أولاً؛ حيث يكون الفرد مثل البذرة الصالحة للإنبات في البيئة المهيأة للإنبات، فإذا لم يكن هذا الصلاح وهذا الاستعداد، لا يكون ما بعده.

أقواها وأصلبها التراص والتلاحم الذي يحيل على شدة الترابط وقوة الآصرة المؤثرة في شد البنيان المرصوص. إنه أمر ملح لا بد من تحققه تحققًا فعليًا، فلا بد من التراص من خلال التكامل والتناسب بين اللبنات؛ بحيث يثبت هذا الرص رصًّا لا يترك مجالاً لظهور التشققات، رغم ما قد يحصل من اهتزازات أو رجّات.

إن الجماعة بالرص تحمل ما فيها وتتحمله، وإن حصل لأفراد منها تأخُّر أو تراخ أو محنة أو امتحان، فلا يؤثر ذلك في بناء الذات الجماعية المستوعبة لذوات الأفراد، في تكتل مرتبط بعلاقة وطيدة بالواقع، ألا وهي علاقة "تحضير التيار" العام و"صناعة البيئة" العامة المؤثرة والمتحكمة.

إن صناعة البيئة الجماعية وصياغتها، تتيسر بالتزام مبادئ الخطاب التربوي الباني المبني على التضام والتلاحم الذي تؤسسه قاعدة: "أنا من المسلمين". حينذاك يصير الخطاب خطابًا عامًّا، ويصير المنهج منهجًا عامًّا.

وهذا هو الذي صيغت به الجماعة المسلمة في بدايات تشكل أمرها نواة للأمة وبذرة للدولة، فناسبها منهج "التربية المنبرية" تثبيتًا للأقدام وتوطيدًا للنفوس توجيهًا نحو النماء والعطاء، ثم منهج "التربية العلمية"، أي التربية بالعلم تحقيقًا لشرط الكينونة الإنسانية الإسلامية؛ وهو ما تكامل ترابطًا وتشكلاً في "التربية النموذج" أو "التربية المثال".

ولا شك أن هذا الوضع يستدعي تفريعًا وتنويعًا حسب مجالات التفاعل العام وفق معطيات الزمان والمكان. وعلى ذلك تنشأ علاقة بالواقع من خلال

hiragate.com

التوجيه والترشيد والاشتغال بالإستراتيجي العام.

والاشتغال بالإستراتيجي العام ينحصر في بابين خادمين لسائر القضايا ألا وهما "العلم" و"الخُلق"، وذلك بالمفهوم الواسع للعلم والخلق.

العلم: اشتغال بأمر عام ينتج عنه -بمرور الوقت- نتائج واسعة الأثر قد لا تكون متوقعة أصلاً. فيكون هذا الاشتغال من مشمولات "التربية"، أيْ التربية البانية للذات الجماعية، والمحصنة لمقوماتها. ووفق ذلك سارت حضارتنا لا ينفصل فيها التعليم عن التربية، بل تأتي التربية في المقام الأول.

الخُلق: انشغال بصفة تنحصر في التدين. والخُلق الحسَن هو التدين، ذلك لأن الدين كله خلق حسن. ولا بد أن يتفجر الأمر ينابيع خير وعطاء بين الناس، خدمة لهم وسيرًا في حاجاتهم، مما يقوي عوامل التراص والترابط الضامنة لنمو جسد الأمة، بعيدًا عن الأدواء والعلل، قريبًا من الدواء في حالة الإصابة والعدوى.

التوجيه والترشيد وهو أمر متعين بقصد إحداث تأثير عام يحدد توجّه المتوجّهين، ويضبط مسارهم نحو الوجهة الطبيعية الصحيحة. فالتوجه الطبيعي يتم بحسب التوجيه، التوجيه العام نحو التدين الذي لا تملك "التربية العامة" سواه.

إلى هنا يصل بنا المطاف إلى نهاية القصد من هذه اللمحات، التي هي عبارة عن رؤوس مسائل تنفتح على آفاق للبحث والدرس الموسع لكل مسألة على حده. ■

قوافل التاريخ

مِن فَوقك مرَّت قوافل،
وعبرَتْ مواكب ومراكب..
فما بالُك اليوم
يغشاك الحزن والألَم؟!
أَتُراكَ لليأس استسلمتَ،
وعن مهمّتك تغافلتَ،
وعن ذاتك ابتعدتَ،
وجوهرَك تناسيتَ؟!

* * *

(*) أستاذ باحث بكلية الآداب، جامعة محمد الأول، وجدة / المغرب.

الهوامش

(1) الإشارة إلى حديث: "إن مثل ما آتاني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت ذلك فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وأمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

(2) انظر: سيرة ابن هشام ١/٢٥٩.

أديب إبراهيم الدباغ*

مدرسة "حراء" الفكرية

ما من شيء أكثر خطورة على حياة أمتنا ومستقبلها الحضاري مثل نضوب فكرها الإيماني، وانحسار خيالها الروحي، وجفاف وجدانها الأخلاقي، الأمر الذي يضطرها إلى أن تعتاش على خليط فوضوي من الأفكار حيثما وجَدَتْها، وأنّى التقتها، من دون أخذها بالحسبان توافقها مع أصالتنا الروحية، أو تناغمها مع ذاتيتنا التي تشكل الأصل الأعظم لوجودنا، كأمّة لها خصوصيتها وتميزها بين الأمم. لذلك فقد بات في غاية الجدّية أن

أن قلّة حركة المؤمن في مجالات الخدمة الإيمانية، وإخلاده إلى الجمودية والسكونية، تصيب روحه بالتعفن، وتكاد تصيب ذكاءه الابتكاري بالخمود والشلل، كما أنها تعمل على انتزاع خاصية الرهافة الاندهاشية عنه، فلا يعود تثير اهتمامه أية ظواهر كونية وطبيعية أو إنسانية.

تنشأ في الأمة مدارس فكرية وإيمانية، لتكون مرجعية للفرد والمجتمع يعود إليها ويستمد منها ويأخذ عنها.

وليس من باب المغالاة القول بأن مجلة "حراء" -بأبحاثها ومقالاتها- غدت اليوم مثابة فكرية، ومرجعية إيمانية للأفراد والمجتمعات؛ فقد استطاعت هذه المجلة بخطها الفكري والثقافي، المتزن والمتوازن، أن ترسي قواعد مدرسة فكرية راسخة القدم في حياتنا الثقافية والفكرية، ولا سيما بتلك المقالات ذات العمق الفكري والإيماني، والذي اعتاد فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن" أن يفتتح بها كل عدد من أعداد هذه المجلة.

فمقالات "كولن" هي بمثابة العمود الفقري لجسمانية مدرسة "حراء" الفكرية، بما تحدثه من انقلاب وتغيير في الأفكار والأنفس، حتى إنها لتدفع المؤمن وتنهضه من رقدته ليشقّ طريقه إلى ممارسة جلائل الأعمال، وعظائم المهمات، تمهيدًا لمجيء اليوم الحضاري المنتظر لهذه الأمة.

فـ"كولن" رائد مدرسة "حراء" الفكرية يعوّل على القلم الحصيف الذي يستمد مداده من نزيف الأمة وجراحات روحها.. فصريف الأقلام عنده أوقع في الآذان من صليل السيوف، والمداد الذي تكتب به الأقلام سيوزن غدًا بدم الشهداء المراق في معارك الإيمان كما جاء في الحديث الشريف.. فالحضارات تبنيها العقول، وتمهد لها الأقلام.. لذا فالمؤمن كما -يرغب أن يراه- ينبغي أن يكون امتداديًّا إلى كل الجهات ولا سيما امتداده في شعاب الكون ومقاربة عقله، واستكناه قوانينه ونواميسه، المكتشف منها وغير المكتشف بعد.. وبهذا الامتداد وهذه السعة يغدو المؤمن كوني النظر، وكوني الفهم والإدراك، وهذه السعة هي التي تؤهله لممارسة الفعل الحضاري عن علم ودراية.

كما أن قلّة حركة المؤمن في مجالات الخدمة الإيمانية، وإخلاده إلى الجمودية والسكونية، تصيب روحه بالتعفن، وتكاد تصيب ذكاءه الابتكاري بالخمود والشلل، كما أنها تعمل على انتزاع خاصية الرهافة الاندهاشية عنه، فلا يعود تثير اهتمامه أية ظواهر كونية وطبيعية أو إنسانية، وسيبقى يكرر نفسه كما ألفها وتآلف معها، دون أدنى رغبة منه في اختراق العادي والمكرور منها، أو الارتقاء بها في سلّم الإيمان إلى درجة أعلى فوق درجتها الماكثة فيها.

فـ"حراء المدرسة"، تسعى عن طريق ما ينشر على صفحاتها ابتعاث خاصية الرهافة الاندهاشية في المؤمن بالفعل الإلهي وبآثاره في الظواهر الكونية والحياتية الصغيرة منها والكبيرة.

ومن أجل إدامة زخم الفاعلية الحركية في المؤمن، كان "الجهاد الأكبر" الذي يعني -كما جاء في الحديث الشريف- مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، فهذه المجاهدة المستمرة إنما هي عملية تحريكية لجمودية الروح وجمودية العقل، وإنقاذ للمؤمن من السكونية المميتة.

فالمؤمن إذا عاش حركيًّا -كما يصوره كولن- شعرت وأنت تقترب منه بحرارة ما في دمه من شعلة إيمانية متوقدة، وقابلتْك وَمَضَاتُ الذكاء المنبعثة كالسهام من عينيه المتألقتين، وأحسست أنه يعطيك قلبه لكي تستودع فيه كل آمالك وآلامك وخفايا أسرارك، وأنه يحنو عليك ويكاد يضمّك إلى صدره، ويسقيك من نبع رحيقه الإلهي الذي تركه مشاعًا للعطاش والظامئين من إخوانه بني البشر.. إنه يشتري آلامك وحيرتك وترددك بمدامع قلبه.. وبالمزيد من الحنو والإشفاق

hiragate.com

لعلك تجد الطمأنينة، وتعود إلى صف المؤمنين.

ومن الضروري أن أشير هنا إلى أن فكرة الاعتدال والوسطية التي غدت معلمًا من معالم "مدرسة حراء الفكرية" لا تعني السلبية، ولا تعني -كذلك- الأخذ بقول "مَن ضربك على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر"، كما أنها هنا في "مدرسة حراء" لا تعني المساومة على أي ثابت من ثوابت الدين بالضرورة، ولا هي ناجمة عن ردود أفعال استفزازية عالمية من هنا وهناك، وليست تنمُّ عن ضعف أو انهزامية كما يريد البعض أن يفسر ذلك.. فإذا كان القرآن يعيب على أهل الكتاب غلوّهم في دينهم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا﴾(المائدة:٧٧)، فإنه يعنينا كذلك نحن المسلمين، ويطلب منا عدم الغلو والشطط والذهاب بعيدًا في التفسير والتأويل وإخسار الميزان: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾(الرحمن:٧-٨).

فالميزان المختل والمتأرجح بين الإفراط والتفريط، هو ما تنأى عنه "مدرسة حراء الفكرية".. فهي تريد ميزانًا يزن بالقسط كما يأمر به الله تعالى، فلا يُخْسِر إلى حد الوقوع في المحذور، ولا يَثْقُل إلى حد اعتبار "اللَّمَمَ" من الذنوب كفرًا وردة.

صحيح أن الأمة قد دبَّ فيها الفساد، ولكنها لم تتفسخ بعد، فهي لا زالت تمتلك من أصول الإيمان ما يعينها على النهوض والقيام ومعاودة مسيرتها الإيمانية من جديد إذا ما وجدت من يستنهضها ويأخذ بيدها ويعينها على تجاوز ضمورها الفكري والإيماني، وهذه المهمة الصعبة هي التي ينبغي على المدارس الفكرية القيام بها والاضطلاع بمسؤولياتها.

وإنه لمن ناقلة القول أن نذكر أن بين "حراء اقرأ"، أعظم وأقدس ما نزل من السماء على قلب محمد ﷺ، "وحراء المجلة والمدرسة" أواصرَ ونسبًا ووشائج متينة لا تنقطع.. وإذا ما قدر لشمس الأمة أن تشرق من جديد، فإن "اقرأ" هي الأفق الأسمى الذي ستشرق منه.. فـ"اقرأ الغار" شرط أساسي لامتلاء وجودنا الأرضي بالمعاني

ما من شيء أكثر خطورة على حياة أمتنا ومستقبلها الحضاري مثل نضوب فكرها الإيماني، وانحسار خيالها الروحي، وجفاف وجدانها الأخلاقي، الأمر الذي يضطرها إلى أن تعتاش على خليط فوضوي من الأفكار حيثما وجَدَتْها، وأنّى التقتها، من دون أخذها بالحسبان توافقها مع أصالتنا الروحية.

حراء

العالية والمفاهيم السامية، فأي مؤمن لا يستطيع ويجب ألا يستطيع قبول وجوده ووجود أمته، من غير أن ينحني لقدسية هذه الكلمة الإلهية التي بها تقوم الحضارات، وتنشأ دول الروح.

فـ"اقرأ" هي مفتاح الفهم عن عالمنا المشاهد والملموس، وهي كذلك مفتاح الفهم عن العوالم الأخرى التي تتوهج بالحياة وراء ضبابيات الأرض.. فـ"اقرأ" هذه هي التي تؤهل مدارك المؤمن وتمده بكثير من الفهم ليصبح قادرًا على استيعاب مسؤوليته الكبرى عن الحياة وعن أبناء الحياة، وبذلك يصبح عاملاً مساعدًا في الكشف عن حقيقة الوجود الإلهي الذي لا زال محاطًا بكثير من الريبة والغموض عند كثير من الناس.

ولكي يحافظ المؤمن على المستوى العالي من الإيمان، عليه أن يواصل التحنث في "حراء قلبه"، ويجعل منه مثابة للتفكر والتأمل في ملكوت السموات والأرض.. ومن هناك يخاطب سرَّ الوجود، وغوامض المقدرات، وسوامق الناشئات، والمنشئات من الخواطر والأفكار العاليات الساميات الرافضات للهابطات من العقول الدانيات، والسلوكيات المعوجات المانعات للإنسان من التقدم إلى أمام. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

hiragate.com

حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

مجلة علمية ثقافية أدبية

تصدر كل شهرين عن دار النيل للطباعة والنشر والتوزيع

Hira ist eine, durch die Daralnile Druck und Vertag zweimonatlich herausgegebene, Wissenschaft, Kultur und Literatur Zeitschrift

رئيس التحرير

هانئ رسلان

Haupteditor
Hani Raslan

مدير التحرير

إسماعيل قايار

Redaktionsleiter
İsmail Kayar

المخرج الفني

قسم التصميم بدار النيل

Grafik-Design
Daralnile Grafik-Team

منسق الاشتراكات

علاء الكوابري

Abonnenten Koordinator
Ala Alkavabiri
+201000780841
+201023201002

نوع النشر

مجلة دورية تصدر كل شهرين

Ausgabeart
zweimonatlich

الطباعة

دار الجمهورية للصحافة

Druck
Cumhuriyet gazetecilik Verlagshaus

رقم الإيداع

٢٤٢٦١

Ziffer IDA
24261

ISSN 2357-0229

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلاً ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

KUWAIT
القبلة، القطعة 51، المبنى 31
مجمع: الهيئة العامة لشؤون القصر، الدور 4.
هاتف: 0096598897271

NIGERIA
.Nusret Educational And Cultural Co. Ltd
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
nusretnigeria@gmail.com

USA
Tughra Books
Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA 345
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

EUROPE
World Media Group AG
Sprendlinger Landstrabe 107-109
63069 Offenbach a. Main / Germany
Phone: 069 / 300 34 130
Fax: 069 / 300 34 105
dergiler@wmgag.eu

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع: المكتب الرئيسي: ١٨٢ حي الازدهار، طريق عثمان بن عفان، الطابق الثاني، المكتب رقم ٦، ص.ب: 68761 الرياض: 12537
Phone: +966 11 4871414
الجوال: +966507570864
Fax: +966 11 4943213

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

MAURITANIA
Phone: +2223014264

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

هل احتل الإسلام البلدان باسم الفتح والجهاد؟ هل يتجدد شباب القرآن؟

ما الحكمة من بدء نزول القرآن بأمر "اقرأ"؟

لماذا جاءت البشارة بفتح القسطنطينية؟

وأسئلة أخرى لافتة للانتباه تجد جوابًا لها وبأسلوب مبسّط يفهمه الجميع.

دار النيل : ٢٢ ج– جنوب الأكاديمية– التسعين الشمالي – التجمع الخامس– القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس : 5–20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

daralnile@daralnile.com

www.daralnile.com

الرمز والمعنى

ميتة أنتِ يا شتائية الروح،

ألف ربيع وربيع معكِ لا يجدي..

مآتم من حولك تقام،

ونار الأفران تتأجج، فاغرة الأفواه

فافهمْ يا مَن تفهم، ورمزَها تعلَّم

ونداءها تَفَهَّم.

* * *

ISSN 2357-0229
9 772357 022004 55
www.hiragate.com

المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا
Europe: 5.30 € • USA: 5 $